قصص الرحالة والمكتشفين

٨



الكابتن سكوت
والقطب الجنوبي

دار المعارف بمصر

قصص الرحالة والمكتشفين

٨

الكابتن سكوت
والقطب الجنُوبى

بقلم

محمد عَبد الغنى حَسن

الطبعة الرابعة

دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الإلكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

صراع مع الطبيعة

تعدُ قصةُ اكتشافِ «الكاتبن سكُوت» Captain Scott للقطبِ الجنوبى فى يوم ١٧ يناير سنة ١٩١٢ م من أروعِ القصصِ الواقعيَّة، المملُوءةِ بالحوادثِ التى لا يكادُ يُصَدِّقهَا العقل. كما تعدُّ قَصةُ وفاتِه هو ورفيقيه: ويلسون "Wilson" وبورز "Bowers" فى يوم ٢٩ مارس من العامِ نفسِه، منْ أروعِ قصصِ البطولةِ والاستشهادِ فى سبيلِ الغَاية، وتحقيقِ الهدَف.

لَقدْ لَقَى هؤلاءِ الثلاثةُ الأبطال مَصْرعهم على بعدِ أميالٍ قليلةٍ مِنَ القطْبِ الجنُوبى، بعدَ أن ركّزوا فوقَ قمتِه الباردةِ المكللةِ بالثُّلوج رَايةَ دولَتهم، وبعدَ أن سجَّلُوا للعالمِ أجمعِ قصةَ انتصَارهم فى غزو القطبِ الجنوبى، فكانُوا ثَانى المكتشفينَ له، بعد أن سَبقهم إليه بثلاثةِ أسَابيع، الرحَّالة النرويجى المشهورُ أمندصن "Amundsen" فى منتصف ديسمبر سنة ١٩١١ م.

ثلاثةُ أسابيع أو تَزِيد، هى الفرقُ بينَ أبطالٍ وأبطَالٍ، فى طريقِ إحرازِ قَصَب السبقِ إلى القطْبِ الجنوبى. فكانَ أمندصن بذلكَ أول إنسانٍ وَطِئَتْ قدماهُ[1] أرضَ القطبِ الجنوبى، وكانَ «الكابتن سكُوت» ثانى بطلٍ يبلغُ هذِه القمةَ التى كانت حُلم الروَّادِ والمكْتشفين منْ زمنٍ طَويل..

---

(١) وَطِئَتْ قدمَاهُ : نَزَلَ به.



ولكـنْ إذا كـانَ «سـكُوت» قد كـانَ ثـانى الروّاد الأبطـالِ فـى البلـوغِ إلى القطـب، ولم يكـن الأولُ الأسبقُ كما كـان يرجُو وهو يأخذُ العدةَ لرِحْلته - فهل ينقصُ ذلـكَ مقدارَ ذرةٍ مـن قـدر بُطُولتـه، أو يقلـلُ مثقالَ حبةِ خـردلٍ مـن قيمـةِ شجَاعته ورُجُولته ؟

هنالكَ يا أبنائى، ويا أصْدقِائى القراء، أسماء كَثيرة دخلتِ التاريخَ مـن أوسـعِ أبوابـه، فـى سـبيلِ اكتشـافِ الأصْقَـاعِ[1] القطبيـةِ الشـمالية والجنوبية، وقدْ آثـرَ هـؤلاء الرجـالُ المخـاطرةَ بأروَاحِـهم فـى الـبردِ اللادعِ[2] الـذى يهرأ[3] اللحم، وفـى الصَّقيعِ المتجمـد، وفـى العواصِف الثلجيـة، وفـوق جبـالِ الثلـج الهائلـة التـى تعـومُ فـوقَ المحيطـاتِ المتجمدة، وفى المساحاتِ الشاسعةِ اللاَّنهائية من الجليـدِ الـذى يصيبُ العيونَ بالبـهر، إذا مـا انعكسـت عليـه شمـسُ الصيـف، وفـى الأصقـاعِ الموحشةِ التى لا يرتفعُ فوقهَا حِسٌّ للحياة، ولا تنمـو فوقـهَا نبتـةٌ واحـدةٌ، ولا يسـمعُ فـى سُـكونها العميـقِ الموحـشِ إلا عـواء الدببـةِ والثعـالبِ

(١) الصُّقْعُ : النَّاحِيَة، والجمع : أصْقَاع.
(٢) اللاَّدِع : الشديد.
(٣) هَرَأ اللحم : أنضَجَهُ جيدًا .

القطبية، وصراخِ طائرِ البنجوينِ الذى يبدُو فى جسْمِه الأسودِ وفى صدره الأبيض الناصع، كأنه شيخٌ اتشَحَ بالسواد، وتحت سوادِ وشَاحِه صدار ناصع البياض. . !

أما الصوتُ القويُّ المجلجلُ الذِى يخترقُ هذَا السكونَ القطبى الموحشَ فهو صوتُ العواصفِ الثلجيةِ حينما تَئِزُّ[1] كأنها طلقاتُ المدافع، وصوتُ الجليدِ المتماسكِ حينما يتساقطُ منَ السماءِ على وجْهِ الأرضِ المغطاةِ بالجليد.

إلى هَذه الأصقاع المتجَمدة المترامية إلى أبعدَ نقطةٍ فى نصفِ الكرةِ الجنوبى، وصلَ «سكُوت» ورفَاقه، بعدَ شهور طويلةٍ منَ الصراع العنيفِ ضد عناصرِ الطبيعةِ القاسيةِ التى لا ترحَم. وفى هذِه الأصقاعِ التى تَعِزُّ فيهَا معالمُ الحياةِ ومظاهرُ الحياةِ، مَاتَ «الكابتن سكُوت» ورفاقه مِيتةَ الأبطالِ. وكأن هَذِه الأصقاع الجبارة، والأرض العنيدَة التى تغلَّبُوا عليها، آثرت أَنْ تحتفظَ فى النهاية، وبعدَ انتصارهم عليها، بأجسَادِهم التى أنهكهَا الزحفُ فوقَ الثلوج، والمشْىُ فوقَ الجليد، والتى أكلَ الصقيعُ أطرافهَا حتى أصابهَا بالشَّلَلِ، فلم تعدْ تقْوى على الصراعِ والكفَاح. . .

إن قصةَ الكفاحِ فى سيرة «الكابتن سكُوت» ورفاقه فى الرحلةِ إلى القطبِ الجنوبى، هى قصةُ الإرَادةِ الإنسانيةِ التى لا تريدُ أن تقهرَ أمامَ

---

(١) أزَّ : أزًّا، وأزيزًا : شِدَّةُ الحرَكَة.

الصعَاب، وهى قصةُ المعنى السَّامى الرفيع فى البطلِ الذِى يهزأُ بالموت- مهمَا كانَ لونه، ومهمَا كانَ مرًّا مَذَاقه - ويبتسمُ وهو يموتُ فى مهبِّ العواصفِ والرياحِ مِيتةَ الأبطالِ.

لقد كانَ «الكابتن سكُوت» يعلمُ تمامَ العلمِ بالخطرِ الذِى هو مقبلٌ عليه فى هذِه الرحلةِ التى أعدَّ لها وسائلَ الصراع، وسبلَ الاحتمال. وقد اتخذَ العدةَ لكلِّ طَارئ، واستعدَّ لملاقاةِ كل خطَرٍ، وتزودَ من وسائلِ النقلِ فوقَ صحارى الجليدِ الشاسعةِ بما يكفيهِ من الأفراسِ الروسية، وكلابِ سيبريا المعودة أن تزحفَ بخفةٍ ومهارةٍ فوقَ الثلوج، ومنَ المزالق والزحَّافَاتِ الميكانيكية، التى تستطيعُ أنْ تشقَّ طريقهَا فوقَ رُقعِ الجليدِ المتراميةِ الأطراف، أو فوق الكتل والهضابِ الثلجية المنتثرة هنا وهناك. كما تزودَ منَ الزادِ والشرابِ الذِى عُبئ وحُفِظ بطُرقٍ عِلْمية صحية.

ولكنّ الأقدارَ كانتْ أقوى من حسَابه ومنْ تقديره، فقد احتجَزته العاصفةُ الثلجيةُ العاتيةُ، هو وصَاحبيه البَاقينَ، فى خَيمتهم الصغيرةِ لبضعةِ أيامٍ، واصَلوا بعدهَا السيرَ فى مُغَالبة الريحِ العاصفةِ العَاتية، وفى مُوَاجهةِ العواصفِ الثَّلجيةِ التى قلَّ أنْ يحتملهَا إنسان.

ولكنَّ الطبيعةَ هذه المرة كانت أقوى منهم، فقد عَجَزوا عن المَشْيِ عَائدين إلى أقربِ مستودعٍ من تلكَ المحطاتِ التى كانوا يُقيمونهَا عَلى طريقِ ذَهَابهم إلى القطب، وأقعدَهم البردُ القارسُ والريحُ العاصفُ،

وعواصفُ الثلج المنهمِر ، كما أقعدهم الجوعُ - بعدَ نفادِ مَئُونتهم - عنْ أنْ ينهضُوا بحركةٍ واحدةٍ للخلاصِ منْ هذَا المأزقِ الذِي وقعُوا فيه.

وَلاَقَى الثلاثةُ الأبطالُ حَتْفهم جُوعًا وبردًا ، فوقَ أرضٍ لا تحسّ بمنْ فوقهَا مِنَ الهالكينَ . وماتُوا فى خَيمتهم الصغيرةِ عَلى الهيئةِ التى كانُوا جالسينَ عليها حينما زحفَ الموتُ إليهم . . .

وقلقَ العالمُ بأسْرِه حينَ لم يسمعْ نبأْ واحِدًا عن «الكابتن سكُوت» وَرفَاقه . ولكن أجسادَ هؤلاءِ الأبطال - حينما عثرتْ عليها بعثةٌ كانت مُوكّلة بالبحْثِ عنهم - كانت تروى بعدَ ثمانية أشهرٍ من مَصْرعهم قصةَ البطولةِ الإنسانيةِ المنقطعةِ النظير . . .

هذَا مجملُ قصة «الكابتن سكُوت» مُكتشف القطبِ الجنوبى فى سطور قَليلة . إنها قصةُ الصراعِ فى سبيلِ العلمِ ، وفى سبيلِ اكتشافِ المجاهلِ التى لم يكنْ يحلُم بارتيادهَا إنسَان .

إنها قصةُ الموتِ النبيلِ الرائعِ فى سبيلِ الحياةِ الخَالدة ، حياةُ الذكرِ الجميلِ ، والسيرةِ الجليلةِ .

أما تفصيلُ قصةُ هذَا الرائد ، وقصةُ نشأَتِهِ ، وقصةُ عزيمتهِ التى ذَهبت فى الأرضِ إلى أبعدِ الغَايَات ، فسأرويهَا لكم فيما يَلى مِنَ الصَّفَحَات. . .

طفولة حالمة

فى سنة ١٨٦٨ كانت مدينة «ديفونبورت» الصّغيرة - التى لا تبعدُ كثيرًا عنِ الغربِ من ميناء «بليموث» الشهيرة فى جنوبى إنجلترا - تشهدُ مولدَ الطفلِ «روبرت فالكون سكُوت» "Robert Ealcon Scott" من أسرةٍ متوسطةِ الحَال.

وشبّ الطفلُ معَ أخواتِهِ الأربع ، وأخيه «أرشيبولد» - الذِى كانَ يَصْغره بعَامَيْن - كأحسنَ ما يكونُ الإخوةُ فى عَلاَقة بعضِهم مع بعضٍ. وكانَ أبُوهم - بعد أن يَنْتَهى من عَمَله فى مصنعِ البيرةِ الذِى يملكه - يعودُ إلى البيتِ فيقضِى مع أولادِه الستة لحظاتٍ هَنيئة ، يُدَاعبهم فيها بألطفِ أنواعِ المداعَبَات ، ويتبسطُ معهم فى القول ، ويستمعُ إلى آمالهم فى الحياةِ ، ولكنَ شَفتى الفتى «روبرت» لم تنفرجَا فى معرضِ التحدثِ عن الآمالِ برغبةٍ فى الذهابِ يومًا إلى أقصَى نقطةٍ فى الأرضِ جنوبًا ، حيثُ القطب الجنوبى بثلُوجه وجَليده وعَوَاصِفه الثلْجِية ، وزمهرِيرِه الذِى يقطعُ الأوصالَ ، ويهرأُ الأطراف.

والحق أنّ طفولةَ «روبرت سكُوت» المبكرةَ والمتأخرةَ حتى سِن المراهقةِ لم تكنْ تنبئُ فى مجموعهَا عنِ ذلكَ المصيرِ العظيمِ الرائِع ، والمستقبلِ اللامِع الذِى وصلَ إليه «سكُوت» بعدَ ذلكَ. فقد لاحظَتْ عليه أسْرتُه وأصدقاؤُه أنه كانَ طفلاً حالمًا ، وأنه لم يكنْ متقدمًا فى الدراسةِ فى صفوفِ المدرسة ، وأن بِنَاءَه الصحى كان دونَ الوسطِ مِنْ

رفقائه ، وأنه كان غيرُ مُصَممِ العزمِ و لا مَاضِي التنفيذِ ، وأنه كان أشدّ حياءً من فتاةٍ حَيية . . . .

ولكنّ أصحابَ المواهبِ والبطولاتِ كثيرًا ما تتأخرُ مَوَاهبُهُمْ فى الظهور ، فلا تجيءُ فى موعدٍ مبكرٍ ، كأنها تتطلبُ من الوقتِ ما يتيحُ لها أنْ تَنْضج ، وأن تبلغَ أشدهَا فى اللحظةِ الملائمة . وكثيرًا ما يكونُ هذا المظهرُ الحَالم ، وهذا السيرُ الوئيدُ[1] فى الدراسَة، وهذا الخجلُ والحياءُ ، هى الدفعةُ القويةُ نحوَ الانطِلاَق ، ونحوَ التصميمِ الأكيدِ ، أو نحوَ الجرأةِ التى تستهينُ بكلّ شىءٍ فى سبيلِ الغرضِ البعيدِ . . .

ولم يحرمْ «سكُوت» الوالدُ أبناءَه شيئًا منْ متعِ الحياةِ التى يستطيعُ رجلٌ فى مثلِ حَالته الاجتماعيةِ والماليةِ أن يجودَ بهَا.

لقد كانَ عنده إصطبلٌ للخيلِ التى كانَ الأولادُ يركبونهَا ويركُضُونَ[2] عليها خارج المضمار الذِى كانت تحيطُ به أسوارُ الحديقةِ .

وقد حدثَ غير مرةٍ أن عادَ الفتى الحالمُ روبرت إلى المنزلِ وليسَ معه حِصَانه ، فسأله أبوه : أينَ جوادُك يا «كون» . فيجيبُ الفتى وهو راقدٌ فى أحلامِهِ أنه فقده عَلى الطرِيق . . ! !

وذاتَ يومٍ عَاد الفتى روبرت – أو «كون» كما كانت تدعُوه أُسرته – وهو أشعثَ أغبرَ ، وكأنما قطعَ الجرىُ أنفاسَه ، وليسَ ممتطيًا ظهرَ

---

(١) الوَئيدُ : الوَأْدُ. ويقال: مَشَى مَشْيًا وَئِيدًا: على تُؤَدَة.

(٢) ركَضَ : أسْرَعَ .

جَوَاده الذِى كان قد خرجَ بـه منذُ الصباحِ المبكـر . فسأله أبـوه سُؤاله التقليدِى:

– أينَ جـوادكَ يا «كون» ؟!.

فأجابَ الفتى فى اضطرابٍ :

– إنها غَلْطَتى يا وَالدِى ؛ وإنــى لآسفُ لما حـدثَ ؛ لقـد كنـتُ جالسًا على بـابِ مزرعـةٍ فـى ضَوَاحـى المدِينة ، وقـد تركـتُ الجـوادَ بجـانبى ، وما هى إلا لحظـةٌ أدرتُ فيها بصرِى حـولَ المكـانِ فلـم أجِـده . . كأن الأرضَ ابتلَعته !

فقال له أبوه :

– عجبًا لك أيها الغلامُ الحالم ؛ إلى متى تظَلّ غارقًا فى أحـلامِ النهار يا «كون» ؟

وابتسمَ الأب وربتَ بيديهِ على كتفِ وَلَدِه روبرت ، الذِى احمر وجهُهُ من شدَّةِ الخجَل ، فى حينَ كانَ إخوته الخمسةُ يضحكـونَ ملءَ أفَواهِهم لأنَّ الجـوادَ «بيبو» كا نَ قد عادَ إلى الإصطبل وَحِيدًا ، بعد أن سـألَ الفتـى الحالمُ عنه نقطَ البوليسِ التى مر بهَا وهو راجعٌ خزيَان ، بغيرِ حصَانٍ !

كانت هذه الحادثةُ الطريقةُ فى الوقتِ الذِى كان يتسـاءلُ فيـه الأب عما إذا كـانَ الطلـبُ الـذِى قدّمـه الفتـى للالتحـاقِ بالبحريـةِ الإنجليزيـةِ سيحوزُ القبولَ. وقد كان الوالدُ فى شَكٍّ منْ هذَا ، كما كانَ الفتـى كثيرَ السؤالِ كُلَّ يومٍ عنِ البريدِ القادمِ ، لعله يحمـلُ إليـه هَذِه البُشْرى التِـى كانت حُلْمه وشُغْله الشاغِل .

وفى هذَا اليوم بالذاتِ الـذى فقدَ فيه الفتـى حصَانـه ، كـانَ الإخـوةُ الخمسةُ يعابثونَ أخَاهم ، بكلّ أنواعِ المعابثاتِ التـى تخطرُ عَلـى البالِ فـى مثلِ هَـذه المناسـبةِ ! فقـالت الطفلـةُ «جريـس» صُغـرى شـقيقات الفتى روبرت :

– إنّ أخانَا «كون» اليوم فى إحْدى نوباتِ حلمه اللذيذِ !

وتابعهَا الشقيقُ «أرشيبولد» قائلاً فى لهجَةِ العبثِ والمزاحِ :

– إنَ منَ الشّاق على المرءِ أنْ يفقدَ حِصَانه !

وردَ عليهما الفتَى الحالمُ فى هُدُوءٍ :

– إنّ حِصَانى «بيبو» سيعودُ إلىَّ عما قليلٍ .

وبالطبعِ لم يكن الفتى «روبرت» يعلمُ أنّ حِصَانه قـد عـادَ وحـده منذُ أمدٍ قَصِير ، وأنه الآن فى الإصطبلِ بينَ بقيةِ الجيادِ الصّغيرة ، التـى كـانَ يحتفظُ بها الرجلُ لأبنائِهِ الأعِزّاء . . .

كان «أرشيبولد» أصغَـر مِنْ أخيـه «روبـرت» بعـاميْن ، وكـانتْ سـنه إذْ ذاكَ إحدَى عشرةَ سنة ، وقد كان يجرى بينهما مـنَ المعاتبـاتِ ما يجرِى بينَ الإخوة المتقاربيْنِ فى الميلاَد . ولكنّ أبناءَ «سْكُوت» علـى العمـوم كـانوا إخـوةً مُتَحَـابين ، وأشـقاءَ مُتصـادقين . وكـانت تسودُهم روحٌ مـن المحبةِ والمودةِ والصداقةِ والتعاون، لا يكدرهَا ذلـك المزاحُ الذِى قـد يحدثُ أحيانـًا بينَ الأشقاء . وقـد كـانَ الفتـى «روبـرت سـكُوت» يضيـقُ صَدْره أحيانـًا بالمزحِ والمعابثَةِ ، وخاصَة منْ شقيقِهِ الصَّغير «أرشـيبولد» ،

ولكنه كانَ عَلـى العمـومِ أخـًا بارًّا رحيمًا ، طيبَ القلْـبِ ، كثيرَ النسيانِ لمشاكساتِ إخْوَته الصَغار . . .

وكانت الأيامُ التى يترقبُ فيها الفتَى «روبرت» خطابَ البحريـةِ بالرفضِ أو القبـولِ هـى أشـدُّ الأيامِ قلقًـا فـى حَيَاتِـه الأولى، وكـانت سـنه إذ ذاكَ حوالِـى الثالثة عشرة ، ولكنـه عـرفَ فـى هـذه السـن المبكـرةِ كيـفَ يكـونُ التفكيرُ والقلقُ ، وانشغالُ البالِ ، وترقّبُ الأمور .

وبالطبع لم يقضِ الفتى هَذِه الأيـام فـى القلـقِ المطلـقِ ، ولم يستسلمْ لهمومِ الانتظار والتوقعِ ، ولكنه كانَ يشغلُ نفسَه مَعَ إخوتـه باللعبِ هنًا ، والجرْى هُنَاك ، والقفزِ فـوقَ جـدرانِ البيـتِ وشُرُفَاته ، وتسَـلقِ بعـضِ الأشجار وتفجيرِ بعضِ البارودِ فى الخلاَءِ الفَسِيح . . .

وذاتَ يوم كانَ يتسـلقُ الشرفةَ التـى فـى وَاجهةِ البيـتِ عَلـى طَرِيقته الخاصّة ، حينما فاجأه أبُوه عَلى هَذِه الهيئةِ ، ولم يكدْ يراهُ الفتى حتـى جمدَ الدمُ فى عُروقه ، ووقفَ لا يبدِى حَرَاكًا ، كأنما سُمر فى مكَانه . .

وحـاولَ الفتَـى أنْ يخفـى رأسَـه ونَظَراتـه عـنْ عينـى والـده ، متوهمًـا بذلكَ أنَ والدَه لن يَرَاه . . . كما تفعلُ النَعامـةُ تمامًا حينَ تدفـنُ رأسَهَا فِى الرملِ ، ظَانَةً أنَّ الصيادينَ لـنْ يروهَا . . . ولكـنَّ أباه نظرَ إليه فـى ابتسامةٍ لطيفةٍ ، وهو يلوحُ له بِوَرَقَةٍ فى يَدِهِ قائلاً :

– لا بأسَ يا كون ! لقـد آن لـكَ أن تـتركَ هـذِه «الشقاوةَ» منذُ الآن ! فقد قبلتَ فى البحْرِية ، و جَاء الكتابُ الذِى كُنَّا جميعًا ننتظِره .

وأرخَى الفتى «روبرت» قَبضته منَ الشرفةِ التى كانَ متعلقًا بها ، وألقى بنفْسِه إلى الأرضِ فى سُرعةٍ عَجيبةٍ .

وما أسرعَ ما حضرَ الأشقاءُ وَحضَرت الأم من داخِل البيتِ ، ليشترِكُوا فى تهنئةِ روبرت بقُبوله طالبًا فى البحْرية ، التى كانَ يحلُم بهَا ، وغمرتِ الأم الحنُونُ ولدهَا اليافعَ[1] بأحرِّ قبلاتِ التهنئة ، وضمّته بينَ ذراعيهَا الرقيقتيْنِ ضمةً قويةً تحملُ كُلّ معانِى الحنانِ والحب.



واشــتركت الشــقيقاتُ الصغيراتُ فى الاحتفالِ عَلى طريقتِهِنَ الخاصّة، فأخذْنَ فى بساطةٍ وبراءةٍ يرقصْنَ رقصاتٍ هى تقليدُ رقصاتِ رجالِ البحرية على نغماتِ مُوسيقى القِرب !

أما شَقِيقه «أرشيبولد» فقد أوحَت الفرحةُ إليه بأن يعبثَ بأخِيه على طَرِيقته الخاصّة ، فأخذَ يُدَغدغ[2] ظهرَ أخِيه بأصَابعه الناحلةِ الرقيقةِ ، وهمَا مغموران فى نَشْوَةِ السّرور . . !

---

(١) اليَافِعُ : مَنْ شَارَفَ الاحتِلاَم ، وهو دُونَ المراهِق .
(٢) دَغدَغ فلانًا : غَمَزَه فى إبطِه أو بطنه فتحرك وانفعل .

وأخذَ الوالدُ فى اختلاطِ أصواتِ الفرحِ ، يقرأُ الرسالةَ التِى وردتْ مِنَ البحريةِ البريطانيةِ ، ونَصها كالآتى:

«تخطرُ قيادةُ البحرية «روبرت فالكون سكُوت» أنه قد عُين تلميذًا بحريًّا للتدريبِ عَلى الباخرة «بريطانيا».

١٥ يوليو سنة ١٨٨١».

وكانَ هذَا الخطابُ هو الحدّ الفاصلُ بينَ حياةِ العبثِ والقفزِ واللعبِ فى مروج ديقونبورت ، وبينَ حياةِ الصراعِ على مياهِ البحار ، ومغالبةِ الموجِ والرياحِ أولاً ، والصّقيع ، وجبالِ الثلجِ ، والزمهريرِ أخيرًا ، فى وحشةِ القطبِ الجنوبى وعُزلته النائيةِ عَنْ كلّ أثرٍ للحضارةِ وللمدنيةِ وللحياةِ. . .

نعم ! كانت هذِه الرسالةُ بدايةَ خروجِ الفتَى الخجُول ، المتقلبُ المزاجِ ، المتوعكُ الصحةِ إلى العالمِ الفَسيح ، ليخْطو فيه أوسعَ الخطواتِ نحو القمةِ القطبيةِ العنيدةِ العنيفةِ ، فى أقصَى طرفِ الأرضِ الجنوبى ، ليثبتَ لكل إنسانٍ أنّ الإرادةَ القويةَ هى أقوى مَا فىِ الوجُود ، للتغلبِ عَلى المخاطرِ والصعَاب ، والاستهانةِ بالألمِ والعذابِ والمنغصّاتِ والحرمَانِ ، فى سبيلِ الهدفِ الذِى يرمىِ إليه أصحابُ العَزَمَات[١] .

وهكذَا بدأَ «روبرت سكوت» – وهو فى سن الثالثة عشرة – يستقبلُ الحياةَ التى قَادته إلى سلسلةٍ منَ الانتصاراتِ فى عَالم الارتيادِ والاكْتِشَاف .

---

(١) العَزَمَات : يُقَال : هذا عَزْمَة ، العَزِيمَة : ما عَزمْتَ عليه. والجمع : عزائم.

على ظهور السفن

قضَى الفتَى «روبرت سكُوت» منذُ التحَاقه بالبحْرية عَاميْن اثنين طالبًا بحريًّا ، تعودَ فى خلالهَا كثيرًا من العاداتِ التى لم يكنْ يعرفهَا أو يألفهَا فى البيتِ بينَ أبويه وإخوته.

لقد كانتْ حياته فى البيتِ لعبًا وفراغًا كبيرًا ، يملؤُه بالقفزِ وركوبِ الخيلِ وتسلّق الأشجار ، والتسللِ إلى شرفاتِ المنزلِ ، وتفجيرِ المفرقعاتِ ، وإمتاعِ النفسِ بالفجواتِ الأرضيةِ التى يحدثها الانفجَار. . . وغير ذلك من وسائلِ اللهوِ والعبثِ التى يقومُ بها غلامٌ خَالٍ منْ كل تبعةٍ من تبعاتِ الحياة .

أما الآن فهو ينشرُ الشراعَ أو يَطْويه ، ويلُفُّ أحبالَ السفينةِ فى لفةٍ ضخمةٍ مُنظمةٍ على شكلِ بَكَرة كبيرةٍ ، أو يفكهَا كما تقتضِى طَبيعةُ العمل. . . وهو تارةً فوقَ ظهرِ السفينةِ يستندُ على حاجزهَا الحديدى ، متأملاً ببصَرهِ إلى ما وراءَ الأفقِ البعيدِ ، وأخرى فى داخلِ السفينةِ أو بينَ ممراتها ودَهَاليزها . وهو تارةً منهمكٌ فى صقْلِ حِزَامه ، أو تَبْييضِ حِذَائه ، أو تلْميعِ أزرار سُترته البحْرية البيضَاءِ الناصِعَة ، وأخرى يشغلُ نفسَه أو يَشغله رُؤساؤه ببعضِ الأعمالِ التى لا تنتِهى على ظُهور السفن .

فكل بحار منهم له عَمل ، وكل بحار منهم منهمكٌ فِى العملِ مُقبل عليه، كالنحلةِ العاملةِ فى الخليةِ معَ أخواتها المئات منَ العملة ، لا ترى

واحدةً منهنَّ بلاَ عملٍ إلا الملكة التى يقومُ الكلّ بخدمتهَا . أما فى السفينةِ فلاَ يُعْفى واحدٌ منَ العمل ، حتى قائد السفينةِ وربانها الأكبر ، لا يقلّ نصيبُه من العملِ عنْ نصيبِ مَنْ دونه منَ البحّارةِ والملاَّحين .

وتركَ الفتى روبرت السفينةَ «بريطانيا» التى كانَ يقضِى مدةَ التمرينِ عليها إلى سفنٍ أخرى ، كانت إحداهَا الباخرة «بوديسيا». وفى سن الخامسة عشرة كان «روبرت» قد انتهى من سنتى التلمذة والتدريب، ليبدأ حياتَه بحارًا صغيرًا «صف ضابط بحرى» ، وهى أولُ رتبةٍ فى سلكِ البحرية بعدَ انقضاءِ عهد التدريب .

وظَلَّ الفتَى خمسَ سنواتٍ منذُ ذلكَ الحين ، حتى كانت سنة ١٨٨٨ حيثُ رقى إلى رتبة الملازم البحرى ، فركبَ سفينةً كندية فى طريقِهِ إلى كولمبيا البريطانية ؛ ليلتحق بسفينته الجديدة «أمفيون» التى عُين ملازمًا بحريًّا لها.

وعلى ظهرِ هذه السفينة الكندية ظهرتْ شجاعةُ «روبرت سكُوت» وشهامتُه ، وروحُ الزعامة والقيادةِ الكامنةِ فيه ، والتى ستتجَلّى فيما بعد فى خلالِ رحلته الخالدةِ إلى القطْبِ الجنوبى.

لقد كانت هذه السفينةُ الكنديةُ مركبًا لجماعةٍ من رجَالِ التعدينِ بأُسَرِهم وأولاَدهم ،حيثُ عَطّلت الثلوجُ طرقَ النقلِ البرى ، فآثروا أن يركبوا البحرَ فى إحدَى البواخرِ الصغيرة، التى تنتقلُ عَلى الشاطئ الأمريكى ما بين سان فرنسيسكو وألاسكا .

وقد ضَاقت هذه الباخرةُ القديمةُ الصغيرةُ بالعشراتِ من ركابهَا الذينَ لا عهدَ لهم مُطلقًا بركوبِ البحار ، ولا تجربةَ لهم فيه ، وكانَ معهم رجلٌ كندى ذُو لحيةٍ سوداءَ ، لمحَ فى الضابطِ البحرِى الصغيرِ «روبرت سكُوت» صِغَرًا فى السن ، فأرادَ أنْ يسخرَ منه ، وأن يقللَ منْ شأنه وخاصّة فى فنونِ الملاحةِ والبحرية ، فغضبَ الشابَ روبرت سكُوت غضبًا شديدًا لكرامتهِ التى كانَ يعتزّ بهَا إلى أبعدَ الحدود . وكانَ جزاءُ ذِى اللحيةِ السوداءِ منه بعضَ صَفعاتٍ ولكمَاتٍ ، أتقنَ «سكُوت» استعمالهَا فى خلالِ تعلمهِ المصَارعةِ والملاكمةِ ، فِى سنتى التدريبِ البحْرى . . . !

وسَال الدمُ منَ الكندى ذِى اللحيةِ السوداءِ، وَلُقن درسًا فى احترامِ الناسِ - مهمَا كانت أعمارهم - لن ينساهُ مَدَى الحيَاة!

وقطعت العواصفُ والرياحُ العاتيةُ على هَذه الباخرةِ كلَ سَبيل ، وذعرَ رُكابها المدنيونَ الذِين لا عهدَ لهم مطلقًا بركوبِ البحَار ، وعلَتْ صرخاتُ الفزعِ واليأسِ ، واختلطتْ أصواتُ المستغيثينَ بأصواتِ الحائرينَ الذينَ كانوا يستمعونَ إلى هذَا النداء : «إلى قوارب النجَاة ! إلى قواربِ النجَاة !» فى ذُهولٍ عَظِيم .

ولكنَ صوتًا واحدًا قويًا مصممًا ارتفعَ من بينِ هذه الأصواتِ المضطَربةِ ، يُعلن فى حزْمٍ أنْ يثبتَ الركبُ فى أماكنهم ، وألاّ يهرعُوا إلى قواربِ النجَاة ، وأنهم لا شكَ ناجونَ من خطَرِ الغرقِ على شرطِ أن

يثبتوا ، وألاّ يدعُوا للجزعِ سَبيلاً إلى الفوضَى التى تهدمُ الكيانَ ، وتزلزلُ الأركَانَ .

كانَ هذَا الصوتُ القوى المصممُ صوتَ «سكُوت» ، وكانت تبدُو من نبرَاته القويةِ المتزنةِ علاماتِ الزعامةِ والقيَادة ، التى ظهرتْ بعد ذلكَ بأربعةٍ وعشرينَ عامًا ، حينما كانَ «الكابتن سكُوت» يقودُ رحْلته الكشفية عَلى صحارى الثلوجِ والجليدِ فى طريقهم إلى القطْبِ الجنوبى . . .

الكشف عن المواهب

قد تكون الأمورُ الصغيرةُ ، أو الحوادثُ العاديةُ سببًا للكشفِ عَنْ أمور عظيمةٍ ، أو طريقًا لاكتشافِ مواهبَ كامنةٍ خطيرةٍ .

والحادثةُ الآتيةُ فى حياةِ «الكابتن سكُوت» تُبين لنا ذلكَ بجلاءٍ ووضُوح .

فى سنة ١٨٩٩ كانت سن الشاب «سكُوت» تبلَّغَ واحدًا وثلاثينَ عامًا ، فقد وُلد سنة ١٨٦٨ كما ذكرنَا ذلكَ من قبل ، وكانت السفينةُ التى يعملُ «سكُوت» عليهَا قبلَ ذلكَ التاريخ ، الباخرةَ الصَغيرةَ «روفر Rover » إحدَى سفنِ الأسطولِ الملكى البريطانى ، وكانت واحدةٌ من سفنٍ أربعِ مُلحقة بالأسطول لتدريبِ الطلاّبِ وصف الضباطِ وصِغَارهم عليها .

وعَلى هَذِه السفينةِ الصغيرةِ بدأت مواهبُ «سكُوت» ومَزَاياه الرفيعةُ فى الاستعدادِ للزعامةِ وإدارةِ الرجالِ تظهرُ لرؤسَائه ومَرْءُوسيه على السواء.

لقد كانَ قائدُ الفرقةِ البحريةِ لسفن التدريبِ الأربع حينذاك السير «ألبرت هستنجس مركهام» ، وقد لاحظَ عنْ قربٍ مزايَا الشاب «سكُوت» وإرَادته الحديدية ، وإدَارته لرجالِ البحرِ عَلى أحسنِ الوجُوه .

وكانَ للسير ألبرت مركهام ابن عم منْ مَشْهورى العلماء فِى التاريخ والجغرافية فى ذلكَ الوقت ، اسمه السير كليمنتس مركهام . وفى سنة ١٨٨٧ - أى بعد التحاق «سكُوت» بالأسطولِ البريطانى بست سنواتٍ لا تزيد - نزل كليمنتس مركهام المؤرخ الجغرافى ضيفًا على ابنِ عمه ألبرت مركهام الضَّابطُ البحرِى.

وكان كليمنتس مركهام - أشهر علماء الجغرافية فى عَصْره - دائم التفكيرِ فى إيفادِ بعثةٍ منَ الرواد والكَاشِفين ؛ لارتيادِ المناطقِ المتجمدةِ وكَشْفِ القطْب الجنوبى . وكانَ شديدَ الإيمان بأن هذِه الأصقاعِ الجليديةِ لابدَّ أنْ تطأهَا قدمُ الإنسانِ المتحضرِ فى أمدٍ قَريب ، وأنها هِىَ والأصْقَاع القطبية الشمالية لابدَ أنْ تتغلبَ عليها إرادةُ الإنسَان ؛ فتقهر ثلوجهَا ، وتقاوم زمهريرهَا وعواصفهَا ، وتتخطَّى حواجزهَا الجليديَّة الهائِلَة ، التى تقفُ كأنها سِلْسلةُ جبالٍ ضخمةٍ تتحدَّى إرادةَ الإنسان . ولكن «كليمنتس» لم يكن حتى ذلكَ الحين - عَلى الرغم من شُهرته العِلْمية - يتمتعُ بمركزٍ رسمى يتيحُ له أن يُوفدَ بعثة إلى القطبِ الجنوبى على إرادته. فإنّ إيفادَ مثلِ هذه الحملةِ يحتاجُ إلى رجلٍ له منصبٌ أو نُفوذ ، يُمكنه من تقرير المالِ أو المساعداتِ الماليةِ أو الأدبية، أو تهيئةِ الرأى العامِ لهذه الحمْلة .

ولم يفقد «كليمنتس» الأملَ يومًا فِي أنْ يأتى اليومُ الذِى يستطيعُ فيه بنفوذِ منْصبه ، وجَاهِ مركَزه ، وسلطة وَظِيفته ، أن يحملَ الحكومةَ أو إحْدَى الهيئاتِ العلميةِ الكبيرةِ على تحقيقِ هذَا الأمل ، الذى كان يُدَاعبه طولَ حياته .

وهَبْ أن المالَ والمعداتِ كانت جاهزةً لإنجاز هذِه البعثةِ الكَشفية ، فأينَ هو الرجلُ القادرُ على أن يتولَّى قيادتها ، ويديرَ دَفتها ، ويقومَ بأمرِ زَعَامتها ؟

إنَّ هذِه الرحلاتِ العنيفة والمغامرات الكَشْفية الخطيرة تحتاجُ إلى طرازٍ مِنَ الرجالِ الأشدَّاء ، أُولي العزْم ، الذينَ لا يصُدّهم هَوْلٌ ، ولا يقفُ فى سَبيلهم شيء ، ولا تثنى عَزْمَاتِهم مصاعبُ الطريقِ مهما اشْتَدّت . فكثيرٌ منَ الناسِ قد تنخَرِعُ [1] قُلُوبهم لأولِ صَدْمة ، وتضْعفُ نفُوسهم أمامَ أولِ عقبة ، فلا يستطيعونَ مضيًّا فى الطريق ، وينكُصُونَ على أعقَابهم [2] ، ويعودونَ من حيثُ بدءُوا وهم عَلى أُولى عتباتِ الطريقِ ، دونَ أن يحققُوا غايةً أو يبلغُوا هدفًا .

أخذَ السير «كليمنتس» يفكرُ منذُ زمنٍ طويلٍ فى أمرِ هذه البعثةِ التى تمنّى أن تُسَاعده الأيامُ على تحقيقهَا ، كما أخذ يفكرُ فى الرجل الذِى يمكنه أن يعهدَ إليه برياستهَا وزعَامتهَا ، ممن تجتمعُ فيه صفاتُ الصبرِ

---

(١) تَنْخَرِعُ قلُوبُهم : تضعُفُ.

(٢) يُقالُ نَكصَ على عَقِبَيْه : رَجَعَ عَمَّا كانَ قد اعتزَمَ عمله.

والمثابرةِ والمغالبةِ ، والنظامِ ، وعدمِ اليأس ، وروحِ التعاون ، واحترامِ النفسِ وحملهَا عَلى كلَ جَليل .

وكانت عينُ السير «كليمنتس» لا تزالُ تفحصُ هنَا وهناكَ ، ولا تزالُ تدورُ حولَ كل رجلٍ تقعُ عليه ، لعلَ فيه تلكَ الصفاتِ التى تطلبهَا زعامةُ رحلةٍ قاسيةٍ عنيفةٍ إلى أرضٍ مغْمورةٍ فى الجليدِ إلى أبعدَ الأعماقِ ، وجمدت فيها المياهُ حتى جمدَت معهَا الحياةُ . . .

ومنْ عجَبٍ أن السير «كليمنتس» كانَ يبحثُ عن زعيمٍ لبعثةٍ لم تعْد أن تكونَ حلمًا فى مخْيلتِهِ، وأملاً من آمالِهِ، وخيالاً لذيذًا جميلاً من تلكَ الخيالاتِ التى يسعدُ بها العلماءُ فى عالمِ الوهْمِ، حتى تتجسَّمَ، وتصبحَ حقيقةً فى عالمِ الواقِعِ.

ولكنَّ السير «كليمنتسْ» كانَ مؤمنًا بأنّ هذِه البعثة - أو هذَا الحلم الجميل - لابد أن يتحققَ قريبًا ، وأن الأيامَ القريبةَ المقبلةَ كَفِيلةً بإنجاز هذَا الحلم ، لأن الذهابَ إلى القطبِ الجنوبى أصبحَ أمرًا لا يحتملُ الانتِظَار . . .

وجَاءت اللحظةُ المقدرةُ لتقعَ فيهَا عينُ «كليمنتس مركهام» على شاب معتدلِ القوام ، لا هو بالطويلِ ولا القصيرِ ، عريضُ الصدر والمنكبيْنِ ، ممشوقُ القد ، نشيطُ حركةِ الذّراعين ، مرتفعُ الذقنِ دائمًا فتظل هامته مُرتفعة عَلى الدوام .

سبحانَ الله ! لقد بدّلت الحياةُ العسكريةُ البحريةُ من هذا الفتى الذى كان من بضعِ سنواتٍ مُعتل الصحّة ، حادّ المزاج ، بادِى الخجَل. .

وقعت عينُ «كليمنتس» على الشاب «سكُوت» فى أثناءَ زيارةِ هَذا العالِم الجغرافى لابنِ عمه السير «ألبرت مركهام» قائدِ سفنِ التدريبِ الأربعِ ، وكانت تلك الزيارةَ فى مناسبةِ سباقٍ للقواربِ فازَ فيه «سكُوت» هو وفريقه فوزًا عظيمًا ، لفتَ أنظارَ المشاهدينَ ببراعَةِ هذا الفريقِ وحسنِ نِظَامه ، وَطاعته ، وروحِ التعاونِ السائدةِ فيه .

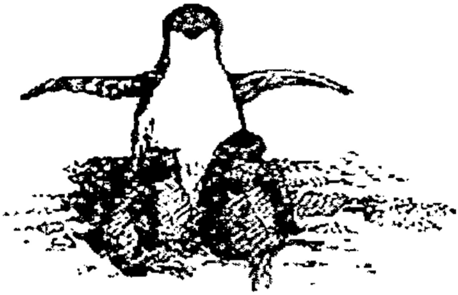
ولأولِ مرة يرى السير «كليمنتس» شابًا تجمعتْ فيه كثيرٌ مِنَ المزايا التى كان يفتشُ عنها للزعيم الذى يُرشحه لبعثةٍ كشفيةٍ إلى القطب الجنوبى لم تولد بعد !

وَأُتيحَ للمؤرخ الجغرافى - السير كليمنتس - أن يرى الشابَّ «سكُوت» عنْ قربٍ ، وأن يستمعَ إلى حَدِيثه ، وأنْ يختبره اختبارًا دقيقًا فى خلالِ المأدبة التى أقامهَا السير ألبرت مركهام - قائدُ فريقِ التدريبِ - للفائزين فى هذا السباقِ ولغيرهم من كبار رجالِ الأسطُول .

واعتقدَ «السير كليمنتس» - بعدَ السباق وحديثِ المأدبة - أنه قد عَثَرَ حقًّا على الرجلِ الصالحِ لرياسةِ رحلةِ القطب الجنوبى ، وادَّخَرَ اسْمَهُ وشَكْلَه فى ذَاكرته ، لعل الأيامَ تسعِفُه بتحقيقِ حُلمه اللّذِيذ !

قصة القطب الجنوبى

قبلَ أن نذهبَ إلى القطبِ الجنوبى مع «الكابتن سكُوت» ورجَالِ بعثته ، وقبلَ أن نركبَ معه الباخرةَ «ديسكفرى» فِى رحْلته الأولى إلى القطب سنة ١٩٠٢ ، والباخرة «ترانوفا» فى رحْلته الثانية سنة ١٩١٠ التى تُوِّجَت بانتصاره العظيم ، وقبل أن نمضِىَ مع هذا المكتشفِ العظيمِ إلى أقصَى



بقعة منَ الكرة الأرضيَّة يحلُمُ بالوصول إليها إنسَان . .

وقبلَ أن نزحفَ معه فوقَ الثلوجِ المتراكمةِ عَلى زحَافاتِ الجليدِ ، أو نأوى معه إلى بيوتٍ ومغاراتٍ وكهوفٍ منَ الجليدِ يحتمونَ فيهَا منَ الريح العاصفَةِ العَاتية ، أوِ نشهدُ معه طائر «البنجوين الإمبراطورى» العجيب وهو يحمِى فراخَه الصغار الضعَاف منْ زمْهَرِيرِ[1] البردِ ، أو نرى معه جبالَ الثلجِ العائمةِ الهائلةِ التى تكَونت من مياهٍ عذبةٍ لاَ ملحة، وتظلُّ هائمةً مُتَحركة فوقَ مياهِ المحيطِ المتجمدِ الجنوبى، كأنها جبالٌ تحسبهَا جامدةً وهى تمرّ مرّ السحَاب. . وقبل أن نشهدَ معه ألوانَ الشفقِ

---

(١) الزَّمْهَرِيرُ : شِدَّةُ البَرْد .

القطبى الرائعةِ التى تبهجُ الأبصارَ ، وقبل أن تنخلعَ قلُوبنَا حينما نرى زحَافة آلية تسقطُ بجملتها فِى شق من تلكَ الشقوقِ الثلجيةِ الكبيرةِ التى يكثرُ وجودهَا فى تلكَ الأصقَاع ، وقبلَ أن نحسَ درجةَ الحرارةِ هناكَ فى شهر يونيو – وهو فصلُ الشتاءِ فى نصفِ الكرةِ الجنوبى – إلى أكثرَ مِنْ ٨٠ تحتَ الصفر . . .

قبلَ ذلك – وأكثرَ منه – سأحدثكُم عن قصةِ القطب الجنوبى. وأعنى قصةَ الحملاتِ والرحلاتِ التى اتجهَتْ إليه ، أو اتجهَت إلى الدائرةِ القطبيةِ الجنوبيةِ ، أو اتجهتْ إلى المحيطِ المتجمدِ الجنوبى .

ولعلكُم قرأتُمْ عن الرحَّالة «كوك» الذى تجدونَ عنه كتابًا خاصًّا فى هَذِه المجموعة: «مجموعة قصص الرحَّالةِ والمكتشفين».

لقد ذهبَ الرحالةُ كوك سنة ١٧٧٤ إلى الأصقاعِ الجنوبيةِ ليكتشفَ القارةَ الجنوبية التى كانَ يظنَ أنها رَاقدةٌ هناكَ فى أ قصَى الأرضِ ، والتى توهمهَا القدماءُ لتحفظَ توازنَ الكرةِ الأرضيةِ ، حيثُ تقعُ فى مقابلةِ القارةِ الشمالية .

واستطاعَ كوك أن يمعنَ فى البحار الجنوبية المتجمدةِ بسفينتهِ الشراعيةِ وبنظامِه الصحى الدقيقِ الذى فرضَه على مَلاَّحيه ليتفادَى وقوعَ داءِ الأسقربوط – أو سوء التغذية – فيما بينهم .

وأصبحتَ أرضُ جورجيا التى وصلَ إليها كوك فى الجنوب وسماهَا باسمِ الملك ، قاعدةً للبعثاتِ الكشفيةِ التى قامَ بها الروادُ مِنْ بعده .

وبعد «الكابتن كوك» بحوالى نصف قرن منَ الزمان – أو فى سنة ١٨٢٣ على التحديدِ – ذهبت بعثةُ بقيادة «جايمس ويدل J. Weddle » فاكتشفَت بحرًا جنوبيًا سمى باسمِ رئيس هذِه البعثةِ التى سبقتها بعشراتٍ من السنينَ رحلاَت لصيد سباعِ البحر، ولم تكن تحملُ أغراضًا علميّةً على الإطْلاَق .

واتجهتْ أنظارُ المستعمرينَ الغربيينَ إلى القطبِ الجنوبى فى القرنِ التاسعِ عَشَر، كما اتجهت أنظارُهُم، قبلَ ذلكَ بكثيرٍ إلى الشرقِ وإلى الدنيا الجديدةِ ليكونَ كلُّ ذلك مَسرحًا لأطمَاعِهِمْ، ومجالاً لمنافَسَاتهم، وميدانًا لاستغلاَلهم وتَسَابقهم على النفوذِ .

مسكينةٌ هذِه الأرض الطيبة؛ التى خلقهَا الله حرةً فسيحةً لتتمتعَ بالحريةِ إلى أقصَى الحدُودِ، فيأبىَ المستعمرونَ إلاّ استعمَارهَا، وتَضْييق الخناقِ عليهَا، ومزاحمةِ أهلهَا فى الطيباتِ التى أحلَها الله لهم . . .

والواقعُ أن الاستعمارَ فى جَشَعه وطمعِهِ وحرصِهِ على التوسُّع والاستغلالِ لا يميزُ أرضًا منْ أرضٍ، ولا يفرقُ بقعةً عنَ بقعةٍ؛ إنّ الدنيَا كلّهَا فى نظرهِ سَوَاء، يستوى فيها السهلُ والجبلُ، والصحراءُ والأوديةُ الخصبةُ، والأصقاعُ الحارةُ والباردةُ، ما دامت كلها فى نهايةِ المطافِ ستخضعُ لسلطانِهِ، وتنضَوِى[1] تحتَ لوائه . . .

---

(١) يُقَالُ: انضَوَى تحت لوائه: خَضَعَ له.

ولهذَا تسابقَ المستعمرونَ إلى الأصقاعِ المتجمدةِ والقطْبين ، كما تسابقُوا إلى الصحراءِ وإلى خطّ الاستواءِ على حدّ سواء . . ؛ ورأينا الرحّالةَ دورفيل "D'urville" الفرنسي، والرحّالة شارلس ويلكس "C. Wilkes" الأمريكي، والمكْتشف روس "Ross" الإنجليزي يَلْتقونَ فيما بين سنتي ١٨٣٠ وسنة ١٨٤١ في غايةٍ واحدةٍ هي رحَلاَتهم إلى القطبِ الجنوبي، مُعبرينَ بذلكَ أصدقَ تعبيرٍ عن روحِ المنافسةِ القائمةِ بينَ بلادِهم لإحرازِ قَصَبِ السبقِ في امتلاكِ هذَا القطبِ والأصقاعِ الموصلةِ إليه !

ولم تحجُم الروسيا قبلَ ذلكَ العهدِ عن الدخولِ في الميدانِ لارتيادِ القطبِ الجنوبي في عصر القيصرِ إسكندر الأول . ولكن هذه البعثة التي أرسلتها روسيا القيصرية بقيادةِ الملاّح الروسي العظيم «بلنجشاوزن Bellingshausen » سنة ١٨١٩ – سنة ١٨٢١ إلى الأصقاع المتجمدة الجنوبية لم تكنْ في الحقيقةِ إلا لتدريبِ رجالِ البحريةِ الروسيةِ على خوضِ غمراتِ هذه البحار . . .

وقدْ نَبهت رحلةُ روس إلى الأصقاعِ القطبيةِ الجنوبيةِ سنة ١٨٤١ أذهانَ العالمِ إلى أشياءَ جديدةٍ وحقائق مفيدةٍ عن تلكَ المناطقِ النائيةِ الباردةِ المكَللة أرضهَا بالثُّلوج.

لقد ذهبَ في سفينتيه الصغيرتين إربوس "Erebus" وتيرور "Terror" وبشجاعةٍ فائقةٍ منقطعةِ النظير ، حتى شقّ طريقَه إلى جبالِ الثلجِ العائمةِ ، ليصلَ بعدهَا إلى بحرِ روس الذِي شقّ باسمه إلى اليوم. فلمّا بلغَ خطّ العرضِ الجنوبي ٧٨ وجدَ سلسلةً منَ الجبالِ دَاخلةً في البحرِ

فأسماهَا أرضَ فكتوريـا نسبةً إلى الملكةِ الشّابة . وإلى الشرقِ من تلكَ الأرضِ كـانَ أولُ إنسـانٍ رأى بعينيـهِ ذلكَ الحائط العظيم منَ الثَّلج – ذلكَ الحائطُ الذِى لا يشبهُ أىّ شىءٍ فى تلكَ المناطقِ المتجمدة. وقد أطلقَ عليه هذَا الرحالةُ اسمَ «الحاجز الثلجى العظيم».

وظلّت البحارُ القطبيةُ الجنوبيةُ بعدَ بعثةِ روس هادئةً لمدةِ اثنينِ وثلاثينَ عامًا ، لا يعكّرُ بياضَ ثلوجهَا وجليدهَا مواطئ أقدامِ الإنسَان ، ولا تنزعجُ طيورُ البنجوين فيها لمشهدِ الإنسانِ وهو مقبلٌ بزحْفِهِ وزحَافاته ، كأنه سيسدُّ عليهَا مسالكَ هذَا الفضاءِ الجليدى الفَسِيح ؛ ولا تَفِرّ الدببةُ القطبيةُ البيضاءُ من ذلكَ المهاجمِ الجديدِ ، المسلحِ بالعلمِ والمعرفةِ والعقلِ ، ليغزوهَا فى مَعْقَلِهَا، الذِى ظلّ على مَدَى العصور أكثرَ أمنًا لها مِنَ الأمان !

إلى أن جاءت سنة ١٨٧٣ – سنة ١٨٧٤ ، فجاءت الباخرةُ تشالنجر "Challanger" الإنجليزيةُ تحملُ على ظهرهَا بعثةً علميةً بقيادةِ العالمِ المشهور السيرجون موراى "J. Murray" لتدرسَ المحيطات الجنوبية، ولتدرسَ الأحياءَ البحريةَ فيها ، ولتجدَ بعضَ الصخور القارية التى تثبتُ أنّ هنَا كانت قارة فى الجنوب .

وهدأتِ البحارُ الجنوبيةُ فترةً أخرى بعدَ سنة ١٨٧٤ ، إلى أن كانت بعثةُ الكابتن سكُوت الأولى سنة ١٩٠٢ التى سنتحدثُ عنها عمّا قَلِيلٍ . . .

أعجب لقاء فى الطريق

نحنُ الآن فى صيفِ سنة ١٨٩٩ ، وكانت موجةٌ منَ الحرّ اللافحِ تسودُ لندن كلَّهَا ، بل تسودُ كلَّ مكانٍ فى إنجلترا على وجْهِ العُمُوم .

وكانَ الناسُ يغدونَ ويروحونَ فى شوارعِ العاصمةِ المزدَحمة ، لأن الحرَّ مهما اشتدَّ لا يمنعُ الناسَ من قضاءِ أعمالهم ، ومزاولةِ أُمُورهم .

ولندخُل الآن فيِ قلبِ هذِه المدينةِ لِنَرى طريقًا حافِلاً من أهم طرقاتهَا الواسعةِ اسمه «طريق قصر بكنجهام» .

كانَ هناكَ على إفريزِ الطريقِ شَاب فى الواحدةِ والثلاثينَ منْ عمره ، معتدلُ القوام ، عريضُ الأكتافِ والمنكبينِ والصّدر ، نشيطُ حركةِ الذراعين ، مرتفعُ الرأس ، يشقّ طريقَه فى ذلكَ الحر اللافحِ فى خطواتٍ عَسْكرية منظَمةٍ ، لا فتورَ فيها ولا اضطِرَاب .

وكانَ هذَا الشابّ القوىَ الخطى ، يلبسُ ثيابَه البحريةَ الرسميةَ ، لقد كانت بزَّةً أنيقةً حسنةَ الهندَام ، ولكنها تحملُ الدلالةَ على أنها خَدمت صاحبها زمانًا ليسَ بالقصير ! أما ضفائرُ القصبِ المموه بالذهبِ التى على صَدْره فكانَ الصدأُ قد علاَهَا ، وانطفأ بريقُهَا اللامعُ من طولِ ما فعلتْ بها الأيامُ !

وأكبرُ الآياتِ على أنّ هذِه البزةَ البحريةَ الأنيقةَ النظيفةَ قديمةَ العهدِ ، هى ضيقُ سترتهَا بعضَ الشىءِ على جسمِ الشاب الممتلئ ، وبعض القصرِ الملحوظِ فى سراويلهَا . . . !

ولم يكن هذا الشابّ الذِى ألقتْ به الأقدارُ اليومَ فى طريقِ قصرِ بكنجهام غيرَ الضابطِ البحرى «روبرت سكُوت» الذِى عرفناه قبلَ ذلكَ ، وعرفنَا شيئًا من معابثاته وأحلاَمه بينَ إخوته ، ومع حصَانه «بيبو»، وفى بيتِ أبيهِ فى مدينةِ ديفونبورت .

ولم يكن ظهورُ «سكُوت» فى هذِه السترة البحرية القديمة العهد إلا علامة على أنه لم يستطعْ أنْ يشترى لنفسِه حلةً جديدةً غيرهَا تلائمُ نمو جِسمْه ، وارتفاعَ قوامه .

ومن أينَ كانَ يستطيعُ الشاب «سكُوت» بمرتبه الضئيل القليل من البحريةِ أن يكفى حاجَاتِ نفسِهِ وحاجَاتِ أُسرته ، التى أَصبحَ أَمرهَا موكولاً إليه ، وأصبحَ هو المسئولُ الوحيدُ عن مَعَاشها ورزقهَا ؟

لقد كان مرتبُ الملازمُ البحرى من القلةِ بحيثُ لا يكفى الإنفاقَ على أسرةٍ مثل أسرته تتكونُ من أبٍ وأم وأخٍ وأربع أخَوات .

ولعلكَ تسألُ عن مصيرِ الوالدِ الذِى كانَ يعولُ هذِه الأسرةَ ، وكانت تعيشُ فى كنفِهِ فى بيتٍ موفور الحاجَات ؟

إن حوادثَ الزمانِ لا تـتركُ الناسَ دائمًا على حَالهم ، وإنما تتقلبُ بهم من حَالٍ إلى حَالٍ . وكذلكَ كانَ شأنُ أسرةِ «سكُوت».

وكان أولُ نكبةٍ أصيبتْ بها هذه الأسرةُ أن الوالدَ العجوزَ اجتمعَ عليه كِبَرُ السن ، وضَعْف الشيخوخَة ، وفقدَان الثروةِ ، حتى لقد ضاعَ منزلهم الرحيبُ في ديفونبورت ، وتركُوه إلى مسكنٍ متواضعٍ صَغير .

ومات الأب بعد عامينِ من هَذِه الأحداثِ ، وتركَ زوجتَه وأولادَه في رعَاية الشاب «روبرت سكُوت» ، وكانَ في أولِ عهده بالبحريةِ بعد إتمام عَامى التدريب .

ولم تشأ الأقدارُ أن تسالمَ هذه الأسرةَ التى أصبحَ عبؤهَا علىِ كاهلِ الفتَى روبرت ، فماتَ شقيقُه اللطيفُ «أرشيبولد» – الذِى كانَ يصغره بعاميْنِ – عَلى أثر مَرَضه بالحمى ، وأصبح مرتبُ الملازم البحرى عاجزًا عن سدّ نفقاتِ الضابطِ نفسِه ، وأم ، وأربع فتيات .

ومن هنَا كانَ الفتى روبرت يقتصدُ في نفقاته إلى أبعدِ الحدود ، وكان يحرمُ نفسَه كثيرًا منَ المتع التى يتمتعُ بها زملاَؤُه الضباطُ ، حتى لا يتركَ لأسْرته حاجةً إلى مظهرٍ أو طعامٍ أو كسَاء .

إنها تضحيةٌ جميلةٌ ، ومسئوليةٌ كبيرةٌ ألقتها الأيامُ على كاهلِ فتى كانَ إلى عهدٍ قريبٍ خَاليًا من التبعاتِ والمسئُوليات .

فلا بأسَ أن تكفيه السترةُ البحريةُ – ما دامت أنيقةً نظيفةً – بضعةَ أعوامٍ ، بدلاً منْ عملِ سترةٍ كُل عام .

وكثيرًا ما كان روبرت يقضِي عطلاتِ الأُسبوع على ظهرِ الباخرةِ الرَّاسية في الميناء ، فلا ينزلُ إلى الشاطئ مع رفَاقه الضباط . التماسًا للاقتصادِ في النفقات .

وكانَ السيد «كليمنتس» – حينما يأتي لزيارةِ ابنِ عمه السير ألبرت قائدِ الفرقةِ التِي يعملُ فيها «سكُوت» – يعلمُ كثيرًا من أمور هذَا الشاب الذِي كانَ يدخره لقيادةِ البعثةِ إلى القطبِ الجنوبي فيما لو سَاعَفَتْهُ الأيام[1] !

استطردنَا قليلاً في وصفِ هذَا الشاب الذِي كانَ يشدُّ الخُطى في إرادةٍ وحزمٍ على إفريزِ الطريقِ في شارعِ قصر بكنجهام . والآن نعودُ إلى الطريقِ نفسِه لنرى شيخًا في وقار العلماءِ وتواضُعِهم يقفُ فجأةً على بعدِ مائتي ياردة من الشاب المسرعِ الخطوات ، ليقولَ في دهشةٍ وتعجب :

– هالو ! هذا هو «سكُوت» ، وإلاّ فإني لا أعرفُ شيئًا ! ووقفَ الشيخُ واتكأ على عصَاه مُنتظرًا عبورَ الشاب على مقربةٍ منه ، ولم يكُنْ وقوفُ رجلٍ كهلٍ في الطريقِ وتحتَ الشمسِ الحارةِ في ذلكَ اليومِ – وليسَ هناكَ مكانٌ ظليلٌ – شيئًا مُستحبًا . ولكنَّ هذِه السانحةَ مِنَ الحظ قد جَاءت فلماذَا لا ينتهزهَا العالمُ العجوز ؟

---

(١) سَاعَفَتْهُ الأَيَّامُ : المقْصُودُ هُنَا أعْطَتْهُ الفُرْصَةَ .

كانَ هذَا الشيخُ الوقورُ هو السير «كليمنتس» ، وكانَ فِي هذَا الوقت بالذَات يفكرُ فى أن يكتبَ خطابًا إلى الشاب «سكت» يَسْتدعيه من ديفونبورت ليحضرَ إلى لندن ؛ ليتحدثَ معه فى شأنِ البعثةِ القطبيةِ التى قد تقررَ أمرهَا .

والآن جاء «سكُوت» بنفسِه أمامَ الشيخِ العالمِ ، وألقتْ به الصدفةُ السعيدةُ فِى طَرِيقه ، وفى لندن بالذَات ، فلا حَاجةَ إذَنْ إلى إرسَالِ خِطَاب . . .

وأخذَ الشيخُ يرتقبُ دُنُوَّ الشاب منه ، فلما صَار منه على مدًى قريبٍ رفعَ الشيخُ عصَاه وأخذَ يلوحُ بها فى الفضَاء ؛ لعلَه يُلفتُ نظرَ الفتَى المسرعَ الخطوَاتِ . ثم أخذَ يُنَادِى قائلاً :

– هالو : سكُوت ! هالو ! سكُوت !

ولم تصِل الصيحاتُ إلى أذنِ الشاب الماضِى فى طريقِهِ كالسهم . وتمتمَ كليمنتس قائلاً :

– لَكَ الله أيها الشاب ! أما تزالُ حالمًا شَاردَ النظراتِ كعهدِى بكَ مما سمعته عنكَ ؟

وكانَ كليمنتس يعلمُ الكثيرَ عن الفتىَ سكُوت ، ويتتبعُ أنباءَه منذُ قررَ فى نَفْسِهِ عَلى أنه هو الرجلُ الصالحُ لبعثةِ القطب الجنوبى .

وأخرج الشيخْ منديلَه من جيبِ سُترته يمسحُ العرقَ المتصببَ عَلى وجْهه ، فقد أجْهَده الوقوفُ فى الحرِّ والشمس ، كما أجهده النداءُ المتكررُ والحرصُ على أن يدركَ الشاب .

وما هى إلا لحظاتٌ حتى كانَ الفتى عَلى بعدِ خطوةٍ منَ الشيخِ ، وقد وصلَ النداءُ إلى سمعِهِ ، فتحَولَ إلى السير كليمنتس ، ووجْهه مُحمر خجَلاً وهو يعتذرُ إليه مِنْ أنه أجهدَه بدعاءٍ لم يَسْمعه ، وبمجهودٍ ما كانَ أغناهُ عنه !

وردّ الشيخُ على اعتذار الفتى بكلامٍ حلوٍ جميلٍ ، ثم دعاهُ إلى الحديثِ معه فى بعضِ الشئونِ !

كانَ الفتى «سكُوت» خَالى الذهنِ تمامًا عن تلكَ الشئونِ التى سيتحدثُ إليه فيها الشيخُ الوقورُ . فإن الشيخَ لم يُفْض[1] بنيته القديمةِ هذه إلى أحَدٍ ، بل ادّخرهَا فى نفسِه حتى يأتى الوقتُ المناسبُ لتحقيقهَا كما سلفَ القول .

ولم يكنْ هناكَ محلَ قبلَ ذلكَ لأنْ يعلنَ الشيخُ عن نيتهِ فى اختيار هذَا الفتى لبعثةِ القطْبِ ، مَا دَامت هذه البعثةُ لا تزالُ حلمًا منَ الأحلام ! وما دامَ الشيخُ فى مركزٍ لا يجيزُ له أن يقررَ البعثاتِ ، أو يُوفد الرحلاَت . .

---

(١) يُفْضِى إلى فُلاَنٍ بالسِّر : يُعْلِمُه به ، ويَقُولُه لَه .

أما اليوم وفى صيف سنة ١٨٩٩ فقد أصبحَ السير «كليمنتس» رئيسًا للجمعيةِ الجغرافيةِ الملكيةِ ، وبذلكَ أصبحَ شخصيةً رسميةً ممتازةً فوقَ شخصيتهِ العلميةِ القديمةِ . ومن هنَا يجوزُ لـه اليوم أن يقررَ أمرَ البعثاتِ الكشفيةِ ، وأن يجمعَ لها الأموالَ اللازمةَ من مالِ الهيئاتِ العلميةِ ، أو من سندِ الحكومةِ ، أو من تبرعَاتِ الأفراد .

وبدأ الحديثُ أولاً حولَ عملِ «سكُوت» الآن فى تجاربِ الطُّورْبيدِ البحْرى .

وسأله الشيخُ :

– فِى قواربِ الطوربيدِ الصغيرةِ أتحبُّ العملَ ، أم فى السفنِ الحربيةِ الكبيرةِ ، كالسفينة «ماجستيك» ؟

وتطرقَ الحديثُ إلى مجموعةِ السفنِ التِى عملَ عليهَا «سكُوت» منذُ التحاقِهِ بالبحْرية . وقفزتْ إلى ذهنِ الشاب ، كما قفزتْ فى خلالِ الحديثِ ، أسماءُ السفن الحربيةِ : ديفايانس ، وجوبيتر ، وإمبراطور الهند ، وفولكان التى يحملُ لها الشابُّ «سكُوت» ، أو تحملُ هى له أطيبَ الذكرياتِ . . .

وتطرقَ الحديثُ بعدَ ذلكَ إلى الجمعيةِ الملكيةِ الجغرافيةِ التى أصبحَ السير كليمنتس رئيسًا لها . فأخذَ الشيخُ الوقورُ يقصّ على الفتَى أن الجمعيةَ مشغولةُ الآن شغلاً كثيرًا يجمْعِ أموالٍ لتبعثَ بها إلى إحدَى الرحلاتِ الكَشْفيةِ . .

وهنَا سألَ الشاب «سكُوت» .

- إحدَى الرحلاتِ الكشفيةِ ؟ إلى أينَ أيها السيدُ ؟

- إلى القطْبِ الجنوبى . . . إلى القارةِ المتجمدةِ الجنوبيةِ يا مستر «سكُوت» ! ومضَى الشيخُ قائلاً : لقد سَاهمت الجمعيةُ الجغرافيةُ بجزءٍ منْ نفقاتِ الحملةِ ، كما ساهمت الجمعيةُ الملكيةُ بجزءٍ آخرَ ، كما اشتركَ بعضُ الأثرياءِ الذينَ تعنيهم هذِه الاكتشافاتُ ببعضِ التبرعَات . ولقد أخذتُ وعدًا منَ الحكومةِ بأن تقومَ هى بنصيبهَا أيضًا فى مَنْحِ الحملةِ معونةً ماليةً .

وهكَذَا ترى يا مستر «سكُوت» أنَ البعثةَ القطبيةَ ستبدأُ عملهَا على سبيلِ التَّأكيد . . .

وأجابَ «سكُوت» قائلاً وهو يبتسمُ ابتسامةً رقيقةً :

- إنّ هذَا يحملُ كثيرًا من المعانِى لكَ يا سيدى !

- نعم ! يا مستر «سكُوت» ؛ فقد وضعتُ بنفسِى خططَ هذِه البعثة منذُ سنواتٍ كثيرة ، والآن يتحققُ ما وضَعته منَ الخططِ . وبالطبع لن تبدأَ المرحلةُ قبلَ عاميْنِ أو عَامٍ عَلى الأقل . فهناكَ أمرُ السفينةِ التى سَتُبْنَى خَاصّة لهذَا الغرضِ لتحتملَ ضغطَ الجليد ، وسنسميهَا الباخرةَ : ديسكفرى.

هذا رائعٌ يا سيدى !

واستمرّ السير كليمنتس فى حَديثه الجميلِ إلى الشاب ، عَلى طولِ الطريقِ فى ذلكَ اليومِ الحار ، حتى بلغَا منزلَ الشيخِ الوقور الذِى دعَا «سكُوت» إلى دَاخِله ليتممَا بقيةَ الحديث . . . ووصلَ الشيخُ الكَلاَم قائلاً:

– إنّ فِى ذِهنى رجلاً رأيته أصلحَ الناسِ لقيادةِ هذِه البعثةِ ، وما عليه إلا أن يقدمَ طلبًا رسميًا إلى الجمعيةِ بالطبع .

وأجاب سكُوت فى حماسَةٍ :

– ما أسعدَ هذَا الشخصَ ! ولعله يا سيدى من رجالِ البحرية ، فإنّ مثلَ هذَا الشرفِ العظيمِ يجبُ أن يُخلعَ على واحدٍ منهم !

وغرقَ الشاب «سكُوت» فى أحْلاَمه . . . وتمنىّ لو كانَ يقعُ عليه الاختيارُ ملاحًا أو عضوًا فقط ضمنَ رجالِ الحمْلَةِ ، تحتَ قيادةِ الرجلِ الذِى رآه الشيخُ الوقورُ أصلحَ الرجَال !

وأجاب السير كليمنتس :

– نعم يا مستر «سكُوت» ! سيكونُ قائدُ هذِه البعثةِ القطبيةِ من رجالِ البحْرِية ! لقد وقعتْ عينىّ عليه منذُ زمنٍ طويلٍ ، عَلى الباخرة «روفر» سنة ١٨٨٦ عَلى مَا أظُنّ !

– على الباخرةِ الصغيرةِ روفر منذُ ثلاثةَ عشَرَ عامًا ؟! لقد كنتُ يا سيدى ضَابطَ صَف عَلى تلك الباخرةِ فى ذلكَ التاريخ ، فمن هو ذلكَ الرجلُ الذِى وقعتْ عينُكَ عليه لعلىّ أعرِفه ؟ .

- أظنكَ تَعْرِفُه جيدًا يا مستر «سكُوت» !

وحَاول سكُوت فى هذِه اللحظة أنْ يستعرضَ أمامَ ذَاكرته أسماءَ زملائِهِ القدامَى عَلى الباخرة روفر ، ومرّ أمامَ عينيهِ الزرقاويْن شريطٌ مصورٌ بأشخاصِ أولئكَ الرفاق ووجُوههم وأعمالهم. . . وأسرّ الفتَى إلى نفسِه : تُرى مَنْ يكونُ ذلك الرجلُ السعيد ؟

وما بلغَ الحديثُ هذَا المبلغَ حتى كانَ السير كليمنتس واقفًا أمامَ خريطةٍ كبيرةٍ مُعلّقة عَلى حائطِ غرفةِ دراستِهِ الخاصّة ، تمثلُ القارةَ الجنوبية الثلجيةَ المتجمدةَ . . . الأرض المجهُولَة .

وكانت الخريطةُ الكبيرةُ عاريةً تقريبًا من أسماءِ المواقِع ، حتّى شواطئ البحار الجنوبية كانت نقطًا مُتقطعة غيرَ محدّدةِ المواضعِ ولا موصُولة الخطوطِ . لقد كانت أما كنُ عَلى الخريطةِ مبنيةً عَلى الفرضِ والتخْمينِ ، لا على الحقيقةِ واليقينِ .

ومرةً أخرى اشتاقَ الشاب «سكُوت» أنْ يكونَ عضوًا فى هذه البعثةِ ليصلَ إلى هذه البقاعِ المجهولةِ البعيدةِ فى زُمرةِ الذاهبين . . ولكنّ اختيارَه فى عضويةِ البعثةِ متوقفٌ عَلى إرادةِ الرجلِ الذِى سيتولّى رِيَاستها ، ويُعهدُ إليه بقيادتهَا . . فمنْ هو هذَا الرجلُ السعيدُ يَا تُرى ؟ .

وفكّر «سكُوت» مرةً أخرى . مَنْ ذَا الذِى يُقنِعُ ذلكَ الرجلَ السعيدَ أو يُوصيه بأنْ يأخذَ معه الملازمَ «سكُوت» عضوًا فى هذِه البعثةِ الكشفيةِ كواحدٍ منَ الضباطِ المطلُوبينَ ؟ !

ولكنَ الشيخَ العالمَ الوقورَ السير «كلمينتس» لم يَطُل عليه مجالُ التفكيرِ والتخمينِ حينَ قالَ له :

– منذُ زيارتِي لفريقِ التدريبِ البحرى سنة ١٨٨٦ وقعتْ عينى عَلى ذلكَ الرجلِ الذِى رأيته أصلحَ الناسِ لقيادةِ البعثةِ القطبيةِ المنتظَرَة . . . وقد لاَحظْته عنْ قُرب ، ولاحظتُ تقدمهُ فى خدمةِ البحريةِ منذُ ذلكَ الحينِ ، وإنى لسعيدٌ أنْ أقولَ إنه هو الرجلُ الذِى نُرِيده . . . لقد رأيته الفائزَ الأولَ فى سباقِ القواربِ فيِ ذلكَ الحين !

وهنَا حملقَ «سكُوت» فى عينِ مُحدثه مُقَاطعًا :

– كانَ الفائزُ الأولُ فى سباقٍ للقواربِ يا سيدى ؟

– نعم يا مستر سكُوت !

– فِى سباقٍ للقواربِ فى سانت كيتس سنة ١٨٨٦ ؟

– نعم يا مستر سكُوت ! وأذكرُ أنّ السباقَ كَانَ بينَ ضباطِ الصّف ! وأذكرُ كذلكَ – إذا لم تَخُنى الذاكرةُ ! – أنّ ثانى الفائزينَ كانَ شابًّا اسمه مستر هايد ! !

وهنَا جفَّ الريقُ فى حَلْقِ الشاب «سكُوت» ، وحاولَ أنْ يبتلعَ رِيقَه فلمْ يستطعْ إلى ذلكَ سبيلاً . واحتالَ عَلى الكلامِ قائلاً :

– ولكنك يا سيدى لا تعنى أنّ الشاب الذِى كانَ أولُ الفائزينَ فى السباقِ هو الذِى وَقَعَ عليه اختيارُكَ لقيادةِ هذِه البعثةِ ؟

– بَلَى يا مستر «سكُوت» ؛ ذلكَ مَا أَعْنِيه !

وأجابَ «سكُوت» والدهشة تُغالبه ، والفرحةُ تُثِيره ، والتأثرُ العميقُ يحيلُ صَوته إلى زعقةٍ عَالية :

– ولكننى . . . كنتُ الفائزُ الأولُ فى ذلكَ السباقِ يا سيدى ! ولم يملك «السير كليمنتس» نفسَه من أن يطلقَ من صَدْره ضحكةً عاليةً وألقى يدًا رفيقةً على كتفِ الشاب قائلاً :

– ما أشدَ تواضعكَ يا مستر «سكُوت» ؛ إنكَ أنتَ الرجلُ ! طبعًا أنتَ الرجلُ ! ! هَيّا قَدّمْ طلبًا إلى الجمعيةِ الجغرافيةِ – كما تقتضِى قوانينُهَا – واستعِدَ منَ الآن لهذا العملِ الجليلِ !



وهُنَا لم يستطع الملازمُ البحرى «سكُوت» الكلامَ ، لقد عقدَ الفرحُ لسَانه فلم ينطقْ بكلمةٍ واحدةٍ . . وكانت إشراقةُ السرور ، وومضةُ الفرحِ البادِى على وجْهِه هى الجوابُ الكافِى عَلى هذَا الاختيار . . .

ولم تطل ، بعدَ ذلكَ اللقاءُ العجيبُ ، وهذه الصدفةُ السعيدةُ ، الأيامُ ، حتى تسلَم ضابطُ الطوربيدِ - الملازمُ البحرى «روبرت فالكون سكُوت» الذِى يعملُ على ظهرِ سفنيةِ الطوربيدِ «ماجستيك» - خطابًا رسميًّا مِنَ السير «كليمنتس مركهام» رئيسِ الجمعيةِ الجغرافيةِ الملكيةِ ، يخطرهُ فيه بأنه تقررَ تعيينه قائدًا لبعثةِ القطبِ الجنوبى على ظهرِ السفينةِ ديسكفرى "Disocovery".

وهكَذَا كانت قصةُ اختيار «سكُوت» قائدًا لبعثةِ القطبِ الجنوبى الأولى التى تقررَ إبحارهَا فى أواخر سنة ١٩٠١ .

أول مرة إلى الأصقاع الجنوبية

كَانت الاستعداداتُ قائمةً على قدمٍ وساقٍ ، لإعدادِ السفينةِ ديسكفرى وتجهيزهَا لهذِه الرحلةِ ، وتموينهَا بما يكفِى رجالَ الحملةِ ، واختيارَ الرجالِ أنفسِهم . ولم تكن واحدةٌ منْ هذِه العملياتِ أسهلَ مِنْ أختهَا .

واستطاعَ «سكُوت» بلبَاقته وكَيَاسته أن يأخذَ أكثرَ ما يستطاع أَخْذه من «إمارةِ البحر» من الرجالِ والعتَاد . وكان أغلبُ ملاَّحيه وضبَّاطه مِنْ

رجالِ البحريةِ الذينَ رجعَ في اختيارهم إلى تَزْكِيَاتهم وما يحيطُ بهم مِنْ سمعةٍ طيبةٍ. أما العلماءُ الذينَ رافقُوه لأغراضٍ علميةٍ فقد كانَ اختيارُهم من هيئاتٍ مختلفةٍ .

وقد صُنعت السفينةُ ديسكفرى على عينِ «سكُوت» ، وصُممت وَبُنيت تحتَ إشْرَافه الدَّائم ، ومُلاَحظته المستمرةِ . وجُهزت السفينةُ آخرَ الأمرِ كأنها وحدةٌ مِنْ قطعِ الأسْطُول . . .

وتركَ الملازمُ «سكُوت» رُتْبته القديمةَ كملازمٍ بحرى ليحملَ شارةَ «الكوماندور» وهى الرتبةُ التِى رُقى إليها قُبيل إبحار البعثةِ .

وفى ميناء «كاوز» "Cowes" جنوبى الجزائر البريطانية كانَ الملكُ إدوارد السابعُ والملكةُ ألكسندرة يودعَانِ رجالَ البعثةِ ويرجُوَانِ لها التوفيقَ . وأخذتِ السفينةُ طريقهَا إلى البحار الشرقية . إلى أقصَى الشرقِ ، حيثُ كانت جزيرةُ نُيُوزيلندة قاعدةً لبدايةِ الرحلةِ إلى بحار الجنوب .

وفى يوم ٨ يناير سنة ١٩٠٢ كانت السفينةُ ديسكفرى تشقَ طريقهَا خلالَ المياهِ المتجمدةِ إلى بحرِ روس ، ولاحظَ رجالهَا من بعيدٍ سلسلةَ الجبالِ ، التى تُعرف على الخرائطِ اليوم باسمِ جبال أدميرال . وألقت السفينةُ ديسكفرى مراسيهَا على الحدِّ الفاصلِ بينَ مياهِ البحرِ وصحارى الجلِيدِ .



واستعدَّ رجالُ الحملةِ للزحفِ عَلى هضباتِ الثلوجِ مشيًا عَلى الأقدامِ ، أو ركوبًا على الزحّافاتِ التى كانت تجرهَا الكلابُ المجلُوبة منَ الأصقاعِ الباردةِ الشماليةِ ومنْ صحارى سيبريا الجليدية المتراميةِ الأطراف .

ولا تسل عنِ الصعوباتِ التى صَادفتهم فى هذِه الحملةِ ، وهم جماعةٌ لاخبرةَ لأكثرهم بالأصقاعِ القطْبية ، ولا تجربةَ لهم على صحارى الجليد ، وجبالِ الثلج ، والأخاديدِ الثلجيةِ التى تنشقّ وتبتلعُ كُلَّ منْ حولهَا ، والرياحِ العاصفة ، والأعاصير الجليديةِ التى لا تَقْوى عليهَا أشدُّ العزمَات .

ومِنْ أينَ لهم الخبرةُ وهم جماعةٌ منَ البحريةِ البريطانيةِ لا عهدَ لهم بأمثالِ هَذِه البحار ، إلا قلةٌ قليلةٌ منهم من رجَالِ السفينتين «بلجيكا»

و «سوذرن كروس» ممن كان لهم قبل ذلكَ بعض التجاربِ في هَذِه المياه؟ ولكنهم كانُوا في حاجةٍ إلى أن يتعلَّموا ، نعم ! كانُوا في حاجةٍ إلى أن يتعلَموا التزحْلُقَ على الثلُوج ، ونصبَ الخيامِ على الأراضِي القطبية ، وتحويلَ الثلجِ والجليدِ منْ عدو قاسٍ لا يرحمُ إلى صديقٍ نافعٍ مُعينٍ .

لقد كانتْ معهم كلابٌ من أجودِ الأنواعِ السيبيرية ، ولكنهم لم يعرفُوا كيفَ يَسْتخدمونهَا في جَرِّ الزحَافات، والخوضِ بين مخاضَاتِ الماء ، ونَوَاتئ[1] الثلُوج !

حتى قائدهُم الشاب «سكُوت» لم يكنْ له سابقةُ خبرةٍ في الثلُوج ، والجليدِ ، وأخاديدِ الثلج ، وَجَرِّ المزالق ، بل لم يكن له سابقةُ خبرةٍ في الرحلاتِ والكشوفِ عَلى الإطلاق . .

ولكن لماذَا اختَاره السير «كلمنتس مركهام» لهذا العملِ الخطير ؟ آه ! إنه اختَاره لشجَاعته ، وإنسَانيته ، ومُرُوءته ، وتَصْميمه ، وتنْظِيمِه ، وحسنِ إدارته للأعمالِ ، وزعَامته للرجَال . وهي كُلُّها مزايَا إن لم تكنْ تكللُ بالنجاحِ في أولِ مُحَاولة ، فهي حَتْميةُ النجاحِ في بقيةِ المحاولاَت . .

(١) نَتأ الشيء نَتْئًا ونُتُوءًا : برزَ في مكَانِهِ مِنْ غير أنْ ينفَصِلَ .

وكانَ أولُ شتاءٍ لهم فى الجنوبِ قَاسِيًا فى شهر يونيو سنة ١٩٠٢ فحاصرَ الجليدُ سفينَتَهُمْ وضيّقَ[1] عليهَا الخِنَاقَ ، حتى لم تعدْ تستطيعُ أنْ تتحركَ . واتخذُوا لهم ملجأً للشتاءِ فى مياهِ بحرِ «مكموردو» ، حيثُ تُطل عليهما ظلالُ بركانى «إربوس» و «تيرور» ، وحيثُ كانَ الدخانُ المتصاعد من فوهتيهمَا ينعكسُ بسوادِهِ الكئيبِ على بياضِ الثلُوج ، فيحيل المكانَ كلّه إلى بقعةٍ حزينةٍ سوداء الظلاَلِ . .

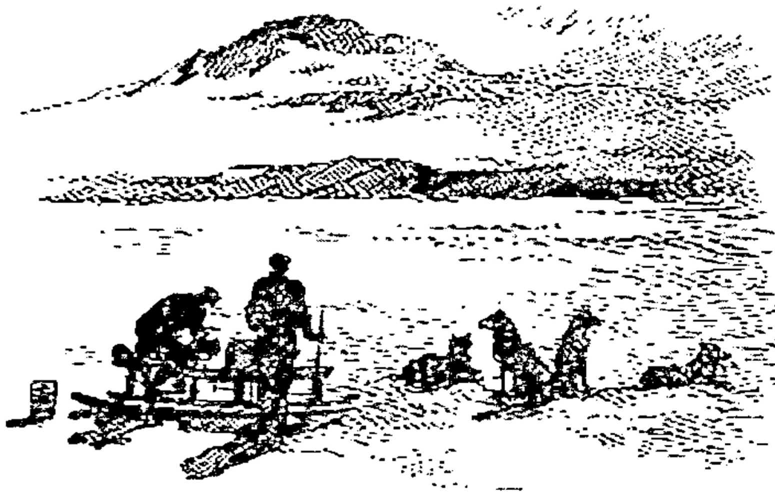
وفى شهرِ أغسطس سنة ١٩٠٢ بدأ الشتاءُ ينزاحُ بزمهريرِهِ وثُلُوجه وعواصِفه وبدأ الربيعُ يلوّحُ بشمسِه التى تُذيب أشعتهَا الثلوجَ ، وتبعثُ الدفءَ فى الأجسَام . وهنَا يُستحبّ الزحفُ على الجليدِ لارتيادِ هذِه البقاعِ . فانقسمَت الحملةُ إلى ثلاثِ فرق : فرقةٌ تتجهُ إلى شواطئ أرضِ فيكتوريا ، وفرقةٌ تتجهُ إلى نهرٍ ثلجى منَ المحتمل أن يقودَ إلى بعضِ قممِ الجبَال ، أمَّا الفرقةُ الثالثةُ - وعلى رأسهَا «سكُوت» - فهى الفرقةُ الرئيسيةُ، وكانَ عليهَا أنْ تزحفَ إلى الجنوبِ مُخترقةً صحَارى الجليدِ خلاَلَ السدّ الثلْجى العَظِيم .

كانَ مع «سكُوت» فى هذَا الفريقِ اثنانِ ممن خلّد تاريخُ الاستكشافِ أسمَاءَهم : الدكتور ويلسون ، والرحالة شاكلتون . أما الأولُ فهو عالمٌ شهيرٌ

---

(١) يُقَالُ ضَيّقَ الخِنَاقَ : أحْكَمَ قبْضَتَهُ عَليْهِ .

فى علْمِ الحيوَان ، وأما الثانى فهو رجلٌ جرىءُ القلْب ، مُولعٌ بالمخاطرةِ صبورٌ على المشَاقِّ ، وله قدرةٌ على إدارةِ الناسِ بحزمٍ وثَبَاتٍ . ويترددُ اسمُهُ كثيرًا فى عالم الكشوفِ القطبية ، فقد ذهبَ إلى القطبِ الجنوبى مرةً بعدَ ذلكَ ، وأبعدَ كثيرًا إلى خطوطِ العرضِ الجنوبية ، حتى كان فى سنة ١٩٠٩ على مسافة ١١١ ميلاً من القطْبِ الجنوبى .



أخذَ «سكُوت» وفريقُه معهم كلَّ معداتِ الزحفِ إلى الجنوب . وبالطبعِ أخذُوا الزحَّافَاتِ والكلابَ السَّيبيرية التى لم تُصب بسوءٍ إلى ذلكَ الحين ، وبعدَ جهودٍ مُضنيةٍ بلغُوا سطحَ الحاجزِ الثلجى ، وشَقّوا طريقَهم بعدَ ذلكَ إلى الجنوب . وهنا كانَ طعامُهم غيرُ ملائمٍ ، وكان طعامُ الكلابِ غيرُ صالحٍ ولا مُنَاسِب ، ولم يعدْ فى طَاقتهم البشريةِ

المحدودةِ أنْ يتقدّموا إلى الجنوبِ خطوةً واحدةً أكثرَ من خَطّ العرضِ الجنوبى ٨٢ ، فاضطروا إلى العودةِ إلى السفينةِ ديسكفرى حيثُ ترقدُ بسلامٍ بينَ أحضانِ الثلوج !

ولكن كيفَ السبيلُ إلى ديسكفرى وبينهم وبينهَا أربعمائة ميل ، ليست فى أرضٍ سهلةٍ ، أو حتى جَبَلية صخريّة ، ولكنــها أرضٌ مُغطـاة بطبقـةٍ كثيفةٍ منَ الثلوج ، ليسَ فيهَا ملامحُ مميزة ، ولا مَعْلَم واحـدٍ مِنْ معالمِ الطريـقِ ، ولا سبيلَ لنجدةِ مَلْهوف . . وإنما هى مَتَاهةٌ شاسعةٌ معاديـةٌ مِنَ الجليد .

وأخذَ الهزالُ والإعياءُ يبدُو على الكلابِ المسْكينة ، فماتَ بعضُهَا ، وذُبح بعضُهَا ليكونَ طعامًا لأخواتـهَا الهزِيلاَت . . . و هكَذَا انتهت حياةُ هذه الحيوانات اللطيفةِ الذكيةِ واحدًا بعدَ واحدٍ . .

وهذه الزحَافاتُ الثقيلةُ التى كانَ يجرهَا على الثُلوج المنبسطةِ أو الناتئةِ قطيعٌ منَ الكلاَب ، مَن الذِى يجرهَا الآن بعدَ أن نَفَقَت تلكَ الحيواناتُ الصابرةُ ؟ لم يبقَ إلا أن يمدّ الرجالُ أَذْرعَهُم ليجروهَا . ولكن «شاكلتون» كان أعجزَ من أن يجرّ حتى سَاقيه الضّعيفتين ؛ لقد أنهكَه داءُ الأسقربوط الذِى وقعَ فريسةً له . أما «سكُوت» فقد واجهَ الحادثَ ببساطةٍ وابتسامةٍ ، ووجّه الحديثَ إلى الدكتور ويلسون قائلاً :

– هات يدك يا دكتور لنجرّ هذِه الداهيةَ بسلامٍ ! حتى نعودَ إلى السفينَةِ . وكانت عمليةُ جرّ الزحافةِ من أشقَ ما احتملَه «سكُوت» فى

هـذه الرحْلـة ، ولكنـهم اسـتطاعُوا بعـدَ جُـهدٍ جـهيدٍ[١] أنْ يحـددُوا موضعَ السفينةِ الجاثمةِ بينَ الثلـوج ، وأن يبلغوهَا فى اليوم الثانى من فبراير سنة ١٩٠٣.

ولكنهم قبل أن يبلغوهَا على مَدَى النظرِ البعيدِ لمحوا فيما وراءَ الأفقِ نقطتيْنِ سوداويْنِ عَلى الجليدِ . . . عجبًا ! إذا كانت إحدَى هاتينِ النقطتينِ هى السفينةُ ديسكفرى ، فما هى النقطةُ الأخرى التى تبدُو بجانبهَا ؟

لقد تبينُوا حينما اقتربُوا، منَ النقطتينِ سفينةً أُخرى رابضةً[٢] على مقربةٍ منَ السفينةِ ديسكفرى ، علمُوا حينَ بلغوهمَا أنها سفينةٌ للنجدةٍ اسمها مورننج "Morning" أو الصباح ، وأنّ إنجلترة– يقصدُ إنجلترا حَاليًا – حينمَا قلقتْ عَلى مصير السفينةِ ديسكفرى بعدَ غيبتها الطويلة ، بعثتْ هذه السفينةَ للبحثِ عنها ، لعلهَا تكونُ بشيرًا بصباحٍ سَعِيد !

واطمأنت الباخرةُ مورننج على الباخرةِ ديسكفرى ، فعادتْ إلى إنجلترة تحملُ أنباءَ سلامةِ البعثةِ ، وتحملُ بعضَ تقاريرَ «سكُوت» وتحملُ بعضَ النماذجِ البحريةِ ، والجليديةِ ، والبركانيةِ ، والصخريةِ ،

---

(١) يُقالُ بعدَ جُهْدٍ جَهيدٍ : أى مَشقّةٍ كَبيرَةٍ .
(٢) رَبَضَت السَّفِينةُ : رَسَتْ وَثَبَتَتْ بالمكَانِ .

التى بعثّ بها «سكُوت» إلى الجمعيةِ الجغرافية ، لإجراءِ بعضِ التحاليلِ والاختبارات العلميةِ عليها ، كما تحملُ «شاكلتون» عائدًا إلى الوطنِ بعدَ أن أنهَكته مضاعفاتُ دَاءِ الأسقربوط.

وباتَ واضحًا أن الباخرةَ ديسكفرى ، المطْمُورَةَ فى الثلوجِ المحيطةِ بها مِنْ كلّ جانبٍ ، لن تستطيعَ أنْ تتخلّصَ منْ قبضةِ الجليدِ القويةِ هذا الموسم ، وأنَ عليهَا أن تنتظرَ شتاءً آخرَ ، لعلّ شمسَ ربيعهِ المرجُو تتمكنُ من إذابةِ الثلوجِ حَوْلها ، فتتيحُ لها أن تتحركَ وأن تخلص منِ هَذِه القيودِ . .

ولم يطلقْ «سكُوت» أنْ يقضِيَ فترةَ الانتظار بلاَ عملٍ ولاَ حركَةٍ . فإنّ الفراغَ هنَا فى هذِه البريةِ الجليدية مُوحش وقَاتل ، فاقترحَ الزحفَ على الثلوجِ غربًا خلالَ الجبالِ . ولكن كيفَ يزحفُ هو وفرقَتُهُ وقد نَفَقَت الكلابُ جميعًا ؟ إنهم سيضْطرونَ إلى جَرَّ الزحَافاتِ بأيديهم على سطُوحِ الجليدِ ، وعَلى الثلجِ الرخفِ[1] غيرِ المتماسِك ، وعلى القشرةِ الثلجيةِ الرقيقةِ التى قد لا تحتملُ ثقلَ مَنْ فوقهَا فتهوِى بها إلى قرارةِ المياه . . .

وبدءُوا الزحفَ باثنى عَشَرَ رجلاً يجرونَ أربعَ زحَافاتٍ . ولم يستطعْ الاثنا عَشَر رجلاً أن يستمرُّوا فى الزحفِ إلى نِهَايته ، فتخلّفوا واحدًا

---

(١) الثَّلْجُ الرَّخْفُ : الخفيفُ لكثرة مائه . والجمع رِخَاف . .

بعدَ واحدٍ ، ولم يبقَ منهم في آخرِ الشوطِ إلا ثلاثة رجَالٍ ، أحدُهم– بالطبع – الرجلُ المجالدُ «سكُوت» ، والآخران هما البحَاران : إيفانس ، ولاشلي . وهما من أشجعِ رجالِ البيئةِ القُطْبية ، وسنراهمَا معه بعدَ ذلكَ في بعثتهِ الثانية إلى القطب سنة ١٩١٠ .

واستمرّ الثلاثةُ في زحْفهم إلى الغربِ ، حتى بلغُوا نقطةً تبعدُ ثلاثمائة ميلٍ عنِ السفينةِ ديسكفري ، وهي مسافةٌ غيرُ هَيّنةٍ في فَضَاءٍ مُكلل بالجليدِ ، وتقعُ هذه النقطةُ عَلى «الهضبةِ القطبيةِ المركزية» ، ويبلغ ارتفاعُهَا تسعةَ آلاف قدمٍ فوقَ البحرِ . . .

لقد كانَ ما أنجَزه هؤلاء الثلاثةُ إلى الآن شيئًا جليلاً في ذَاتِه ، لولاَ أنه كَاد أنْ يختمَ بكارثةٍ . فَقَدْ فُقِدَ «سكُوت» – في خلالَ إحدَى العواصفِ العاتيةِ في ديسمبر سنة ١٩٠٣ – جَدَاوله الرياضيّة ، وجداولَ اللوغاريتمات التي تعينهُ على قياسِ الزوايَا والأبعاد والدرجَات . ولكن كيفَ ضَاعت هذه الأوراقُ الخطِيرة ؟

لقد كان الثلجُ يسقطُ بغزارةٍ منَ السماء ، حتى لا يستطيعُ المرءُ أن يتبينَ مَا أمامه ، وكانت قشورُ الثلجِ تَتَهَاوى[1] عَلى حَاجبيْه وأهدَابه فلا تجعلُ له سبيلاً إلى فتحِ عَينيه . فإذا ما أزاحَ هذه القشورَ عَنْ ناظريه فإنه لا يرى إلا بياضًا ناصِعًا يحيطُ به . وبدَا – مُحَالاً – أنْ يَرَى المرءُ على بعدِ عَشْرَة أقدامٍ .

---

(١) تتهاوى : تسْقُطُ .

وفجأةً هبتْ عاصفةٌ قويةٌ أزاحَت الغطاءَ الـذِى يُغطّـى الصنـدوقَ الخشَبِى الذِى أُودِعَت فيه أدواتُ الرياضةِ وجداولِ الحسَاب . وفِى أقلّ منْ لمحِ البصرِ كـانت هـذه الأوراقُ الثمينـةُ كريشةٍ فـى مَهَبّ الريَـاح ، بَعْثرتها العواصفُ فى أرجاءِ البحار الجنوبيةِ القطْبية . . .

ولم يفقدْ «سكُوت» وسيلةً أخـرى لحسـابِ الأبعَاد ، وقيـاسِ المسافاتِ وهى طريقةٌ تقريبيةٌ إلا أنهَا علـى كـلّ حـالٍ لم تبعـده كثـيرًا مـنَ الأميـالِ عنِ البعدِ المضْبوط . . .

واستحالت الرؤيةُ عليهم منْ ناحيةٍ ، وتعذّر الزحـفُ عليـهم من ناحيـةٍ أُخرى ، خشيةَ أن يسقطُوا فى أحدِ الشقوقِ الثلْجية ، أو يَقَعُوا على قشرةٍ رقيقةٍ من الجليدِ لا تحتملُ أجْسَامَهم . ولكنهم لم يفقدُوا رُوحَهم العَالية ، ولا شجَاعَتَهم النادِرَة . وكـانتْ شجاعةُ إيفانس ، ولا شلى تثيرُ إعجابَ «سكُوت» وتبعثُ الحرارةَ فى قلبـه ، حـتى ليسـتطيعَ أن يذهـبَ إلى أقصَى أطرافِ الأرضِ مع رجَالٍ منْ هذَا الطِّرَاز . . .

ولكنهمَا كانَا علـى ثقـةٍ منْ أنهما يمضيانِ أيضًا إلى ما وراءَ أطرافِ الأرضِ معَ قائدٍ ورائدٍ منْ طراز «سكُوت» . . .

وما كَادَت تهدأُ العاصفـةُ ، وتقفُ الثلـوجُ المنـهمرةُ حتـى بـدأَ الثلاثـةُ زحفَهم على الجليـدِ منْ جديـد . ولكـنّ كثبانَ الثلـوجِ المتموجَـةِ علـى سطحِ الأرضِ كأنها أمواجٌ ثابتةٌ عَلى سطوحِ البحَار ، قد جعلت الزحـفَ أو الانزلاقَ عليها : والصعودَ والهبوطَ فيما بينها ، أمرًا مصحُوبًا بالأخطَار .

وفيما كانَ الثلاثةُ يجرونَ زحَافتهم عَلى هذِه الآكامِ الثلجيةِ المتنَاثِرة ، «سكُوت» منَ الأمامِ ورفيقَاه منَ الخلف ، إذَا بلاشلى تخُونه قدمُه فيسقطَ ويسقطَ معه الجميعُ . ولا تخفْ إذا قلتُ لك إن عمقَ الشّقِّ الثلْجى الذِى انهارَ تَحْتهم كانَ ثلثمائة قدمٍ !

وبالطبعِ تبعثَرَ معهم طعامُهُم وحاجَاتُهُم ، وكانَ من حسنِ حَظّهم أن تعترضَ الزحافةُ بِطُولها فتحةَ الشق ، فتحْميهم من السقوطِ إلى قرارِ الهَاويَة . . .

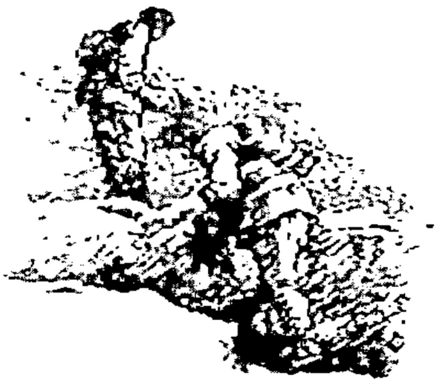
وهنَا يثبتُ الحظَ السعيدُ مرةً أخرى أنه رفيقٌ بهؤلاءِ المغَامِرين . . وما كادُوا يستردّونَ مَوَاقفهم ، ويصْلُحُون ثِيَابهم ، ويلقطونَ ما تناثرَ مِن طعَامهم ، ويعالجونَ بعضَ ما أصَابهم منْ رضُوضٍ ، حتى لمحوا قمةَ «إربوس» تطلُ عليهم منْ بعيدٍ ، حيثُ ترقدُ السفينةُ ديسكفرى على مقربةٍ من ذلكَ الجبلِ العَتِيد . . .

وتأبى معاكساتُ الحظَ إلاَ أن تُلاَحِقَهم مرةً أخرى ، فكأنهم لا يجاوزونَ عقبةً من البلاءِ إلا ليقعُوا فى غيرهَا . لقد اتجهُوا وكلّهم فرحٌ نحوَ السفينةِ التى ستقلهم بعَد قليلٍ إلى أرضِ الوطن ، وكان لابدّ لهم أن يزحَفُوا على الجليدِ مرةً أخرى ، وأن يجتازُوا تلكَ الكثبانِ الثلجيةِ التى تتناثرُ أمَامَهُم وتحتَ أقدامِهِم هنَا وهناكَ . وفجأةً وجدَ «سكُوت» وإيفانز نفسيهما فوقَ رقعةٍ منَ الجليدِ الذِى انهارَ تحتَ أرجُلهم دفعةً واحدةً ، وإذَا الرجلانِ يسقطانِ دفعةً واحدةً فى شِقَ ثلْجى عميقٍ من تلكَ

الشقوقِ التي تكثرُ في تلكَ المناطقِ الثلجيَة ، والتِي تُسمى بالإنجليزية "Crevasses" وقد استطاعَ «لاشلي» أن يتفادَى العثور في الهوّة ، ولو أنه وقفَ على فتحتهَا عاجِزًا عن أن يمدّ يدَ المعونةِ إلى رفيقيهِ العَاثريْنِ .

ولولاَ أنّ الزحافةَ هذِه المرة أيضًا اعترضَت فتحةَ الشق ، وحُشرت بينَ حَوَائطه حَشْرًا، لهوَى الرجلاَنِ إلى قرار سَحِيقٍ .

واستطاعَ «سكُوت» أن يتلمّسَ على جدرانِ الشق الداخلية بعضَ الأفاريزِ الثلجيةِ الناتئةِ التي استعملهَا كدرجَاتٍ للصَعُود ، وبهذهِ الوسيلةِ استطاعَ أن يرفعَ معه إيفانز وهو يشدُ يَدَه ويدْفعه إلى أَعْلى ، حيثُ تخلّصَا من أعماقِ الجليدِ الأزرقِ العميقِ . . .



كانت هَذِه العثرةُ آخرَ مَا لقوهُ فِي حَملتهم الأخيرةِ عَلى امتدادِ الثلُوج التي لا يَتَنَاهَى لها أمدٌ ، ووصلُوا أخيرًا إلى حيثُ ترقدُ السفينةُ ديسكفري بينَ الثلوجِ التي طوقتها فلم تعدُ تستطيعُ منهَا فِكَاكًا .

وهنَا وجدوا سفينةَ الإنقاذِ «مورننج» وقد عَادت مِنَ إنجلترة مرةً أخرى، ومعهَا سفينةٌ أخرى اسمها تيرانوفا "Terra Nova" ، وقد بعثتْ بهمَا «إمارة البحر» الإنجليزية ليرجعَ عليهما «سكُوت» ورجالُ بعثته جميعًا، إذا كانتِ السفينةُ ديسكفرى لا تزالُ هذَا الموسمُ أيضًا محصورةً بينَ أعماقِ الثلوج .

هنَا كانَ الوقتُ قد حانَ لعودةِ «سكُوت» ورجَال بعثته إلى وطَنهم ، بعدَ أنْ قضوا في الأصقاعِ القطبيةِ الجنوبيةِ قرابةَ عاميْنِ اثنيْن . لقوا فيهمَا منَ الأهوالِ ، وقاسُوا منَ المصاعبِ مَا لاَ يبْلُغُه الوصْف .

وخلالَ هذيْنِ العاميْنِ فقدُوا الكلابَ السيبيرية جميعَها التِى جلبوهَا معهم لجرِّ المزالقِ والزحَافاتِ عَلى الجليد ، ولم يفقدُوا من حياةِ الرجالِ إلا رجلاً واحدًا هو الملاَّح «فنس» ، الذِى أدركته عاصفةٌ ثلجيةٌ شديدةٌ على مُنحدرٍ جَليدى ، فابتلعتهُ الثلُوج . . .

لقد عادُوا حتى الآن إلى السفينةِ ديسكفرى فكأنهم عَادُوا إلى الحياةِ منْ جَدِيد . لقد كانُوا خلالَ العامينِ فى أصقاعِ البحار المتجمّدَة الجنوبيةِ كأنهم فى مقبرةٍ هائلةٍ مخيفةٍ منَ الثلوجِ والجَليد ، فالأرضُ والسماءُ والجو المحيطُ بهم ثلوجٌ فى ثلوجٍ ، حتى أنفاسهم الحَارةَ الصَاعدةَ منْ أفواهِهِم لا تلبثُ أن تتجمدَ رطُوبتها فى اللحظةِ التى يخرجُ فيها زفيرُهُم ، فتبدُو كأنهَا خيطٌ رفيعٌ منَ الجليد . وكثيرًا ما كانَ يتكونُ على هذِه الخيوطِ الرفيعةِ ألوانٌ



قـوسِ قَـزحٍ بأصباغـهَا السـبعةُ المتدرجـةُ ، فيبدُو هـذَا المشـهدُ العجيبُ تحفةً للناظِرينَ .

وكـانُوا فـى ثِيَابـهم القطبيـةِ الدافئـةِ السميكةِ الغليظـةِ كأنـهم قرَبٌ منفوخةٌ غريبةُ الأشـكالِ . . . وعَلـى رُءُوسـهم أغطيـةٌ صُوفيـة غليظـةٌ مُبطنة بالجلدِ والفراءِ ، وفى أيديهم قفازاتٌ طويلـةٌ تصـلُ إلى مَرَافقهم ، وفى أرجُلهم أحذيـةٌ خاصَّة صُنِعَت للمشى عَلى الثلُوج وقد لَفُّوا حـولَ سِيقَانهم لفائفَ من الصوفِ ، وَسَتروا أعناقَـهُم برقـابٍ مـنَ الصوفِ تتصلُ بأقفيتهم وآذانهم وأذقَانِهِم ، حتى لا يبدُو مكشوفًا فـى زمهريرِ تلكَ الأصقاعِ إلا عيونهم وأنوفُهم وأفواههم . وكثيرًا ما كـانوا يضعونَ على عيونهم نظاراتٍ ضخمةً محكمةً على محـاجرِ العين ، وهـى نظاراتٌ سوداءُ الزجاجِ أو دَاكنته ، حتى لا تصابُ عُيُونُهُمُ بالبهرِ القطبى الذِى يصابُ به الناظرونَ دائمًا إلى بياضِ الثلُوج . . .

ومعَ ما لاَقَاه «سكُوت» ورجالُه فى هذيْنِ العاميْنِ من صعابِ ومخـاطرَ وحياةٍ شاقةٍ قاسيةٍ ، لا راحةَ فيهَا ولا هُدوء ، ومع كثْرةِ مـا تَعرضُوا لـه من السقوطِ فى الشقوقِ الثلْجية ، والعواصِف العَاتية ، ولذعَات الصقيـعِ التِى

كانت تهرأُ أَصَابعهم وأطرافَهم فإنه كان آسِفًا لاضطِرَاره أن يتركَ الأصقاعَ القطبيةَ قبلَ إنجاز مُهمته . لقد كانَ بوده أن ينتظرَ شتاءً آخرَ حتى تتحسنَ الأحوالُ الجويةُ فيعيد الكرةَ على القطبِ الجنوبيِ منْ جَدِيد.

والحقُّ أنه اشتدَّ به الحنينُ إلى وَطَنه ، واشتاقَ إلى ضَجْعةٍ مريحةٍ على المروجِ الخضْرِ في إقليمِ ديفونشير بجنوبي إنجلترة ، بعد أن لمْ يتركْ لهم الجليدُ راحةً في اضطجَاعٍ ، ولا زحْفٍ . . . ولكنه كانَ قدْ تعلّق بالأصقاعِ المتجمدةِ الجنوبيةِ وأَلِفَهَا ، وأحبَّ ثلوجَهَا الخائنةَ فِي الانزِلاَق ، بل أحبّ عواصفهَا الثلجيةَ العاتيةَ ؛ وأكثر منْ هذَا لقد أحبَّ تلكَ الزمالةَ الطيبةَ ، والرفقةَ الصالحةَ بينَ رجالِ البعثةِ الذينَ تُؤَلفهم المخاطرُ ، وتجمعُهم النكباتُ ليكونُوا يدًا واحدةً في سَاعةِ الخطرِ المحيق . . .

وانتظرَ «سكُوت» ورجالُه أيامًا أمامَ السفينةِ ديسكفرى المدفُونة في الجليد ، حتى يذوبَ الثلجُ منْ حولها بفعلِ الطَبيعةِ ، وإلاّ اضطروا إلى تفتيتهِ بطريقةِ التفْجِير . وفجأةً تَخَلْخَلَ الثلجُ منْ حواليها في يومِ ٢٨ يناير سنة ١٩٠٤ ، وتَحَركت السفينةُ وهى في سِجنها الجليدى بعضَ الحركَة .

ولكنَ ذلك لم يكنْ كافيًا لكى تتحررَ الديسكفرى تمامَ التحرّر منْ كُتَلِ الجليدِ الضّاغطةِ عليها . فوجدُوا أنفسَهُم في يوم ١٤ فبراير مُضطرينَ إلى استعمالِ الديناميت . .

وهكَـذَا مـا لا تسـتطيعُ الطبيعـةُ أنْ تعمَلَـه ، يسـتطيعُ الإنسـانُ أن يفعَلَه . . . ! وكانت أصواتُ الألغامِ المتفجرةِ تجلجِلُ فـى ذلكَ الفضاءِ الثلْجِى الذِى لا نهايةَ له فيرتد لها صَدًى كَبير . . .

وتحررت ديسكفرى الآن تمـامَ التحرر مـن الثلـوجِ المطوقَة لهـا ، وأصبحَت علـى استعدادٍ للرحيلِ عـائدةً إلى نصْفِ الكـرة الشـمالى ، حيثُ ظلَّت غائبةً عنْ مياه بحرِ المانشِ أكثرَ منْ عاميْنِ بِقَليل . . . وأخذ الرجالُ ينقلونَ الفحمَ مِنَ الباخرةِ مورننج إلى السفينةِ ديسكفرى لتتزودَ بالوقودِ الذِى يكفيهَا لِعودتها ، وما كَادَت آلاتُها تبدأُ الـدورانَ ، ونـارُ وقودهَا تأخذُ فى الاشتعالِ ومحركاتُـهَا تـدورُ ، حتـى هَبَت ريحٌ عاصفٌ جَنَحَتْ بها إلى الشاطئ جُنُوحًا أعادهَا إلى قبضةِ الثلج العاتيـةِ مرةً أخرى ، وبدَا أنّ هذه الرقدةَ ستكونُ رقدةَ الأبدِ ! وأنَ الديسـكفرى مَقْضِىٌ عليهَا بالتَحْطِيم . . . ولكنَ موجـةً عاليةً من مَاءِ المدّ المرتفِـع عَوّمتها حتى استطَاعت أن تشقّ طرِيقهَا إلى وسطِ البحَار .

الطريق إلى المجد

فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٤ كانت السفينةُ ديسكفرى قد ألقت مراسـيهَا فـى مياهِ بحرِ المـانش الإنجلـيزى ، حيـثُ احتضنـهَا مَرْفـأُ «سـبيتهد» "Spithead" الـذى تتخِـذه البحريـةُ البريطانيـةُ مينـاءً صَالحًـا أمينًـا لسفن الأسطُول .

وعاد رجالُ بعثةِ القطبِ الجنوبى إلى أَهْلهم بعدَ أن غَابوا عنهم أكثرَ من عاميْنِ ونصفِ عام . وأَخذَ كلُّ عضوٍ فى هذِه البعثةِ يقصّ عَلى أسْرته وأبنائِه وأصدقائه أنباءَ هذِه الرحْلة ، وأخبارَ هذِه المناطقِ المتجمدَة ، وما قَاسُوه فيهَا منْ أَهْوَال .

وكانت الحلقاتُ من الرجَالِ والنساءِ والأطفال المتحلّقة حولَ نيرانِ المدافئ فى الخريفِ الإنجليزى اللاّذِع تدورُ أسمارُهَا وأحاديثُهَا حولَ هذِه البعثةِ ، وحولَ شجاعةِ رجالهَا وعَلى رأسهم «سكُوت» ، وحولَ الفوائِد التِى جنتهَا إنجلترة والعالَم - والعِلْمُ منْ هذِه الرحلةِ التى كانتْ ذاتِ أغراضٍ علميةٍ لمصلحَةِ «الجمعيةِ الجغرافيةِ الملكية» .

واستقبلتِ البلادُ كُلُّهَا من ريفهَا إلى مُدنها هؤلاءِ الشجعان العائدينَ استقبالَ الملوكِ الفاتحينَ . . . وأصبحَ اسمُ «سكُوت» يدورُ عَلى كلَ لسانٍ فى الصحفِ ، وفى المجلاّت ، وفِى الأنديةِ ، وفِى الهيئاتِ والمجتمعاتِ . ولو كانتْ هناكَ إذاعاتٌ فى ذلكَ الحينِ لكانَ اسمُ «سكُوت» يتكررُ فى المحطاتِ العالميةِ على أمواجِ الأثيرِ ، حيثُ تسمعُهُ الملايينُ كُلَّ صباحٍ ومسَاء .

ولماذَا كُلُّ هذَا الضَجِيجِ والبعثة لم تبلغ نقطةَ القطبِ الجنوبى التى هى هدفُ الأهدافِ من تلكَ المخاطِرِ والأهوالِ ؟

إنّ «سكُوت» لَمَّا يكتشفُ إلى ذلكَ الحينِ القطْب ، ولكنه كشفَ الطريقَ إليه ، وأثبتَ أنّ المثابرةَ على هذَا الطريقِ كفيلةٌ بالنجَاح .

وعَادَ «سكُوت» إلى وطنه ليهدأ بعضَ الوقتِ ، وليريحَ جسْمَه المنهوك من عَنَاءِ الرحلَةِ ، فلمَّا كانَ شهر ينـاير سنة ١٩٠٦ استأنفَ عملَه فى «إمارة البحر» كمديرٍ مساعدٍ للمبَاحِثِ البحرية .

ولكنْ هلْ يقنعُ مثل «سكُوت» بأن يجلسَ على مكتبٍ ، شأنُ الخاملينَ ، ويرضَى بالمرتب الذِى تُدِره عليه مثلُ هذِه الوظِيفة ؟ لقد كانَ ذلكَ عملاً مؤقتـًا ، فإن مكَانه الحقيقى هو قيادةُ السفنِ العظيمةِ عَلى أمواجِ البحَار .

ولم يطلْ به المقامُ فى القعودِ عَلى كُرسى ذَلِكَ المكْتبِ فى عملٍ مَكْتبى رَتيبٍ . ففى شهر أغسطس سنة ١٩٠٦ عُين ربانًا للباخِرة الحربيةِ فيكتورياس ، وهى من أعظمِ قطَع الأسطولِ الإنجليزى .

وكان «سكُوت» فى قيادةِ السفينةِ الحربيةِ هو «سكُوت» بعينِهِ فِى قيادةِ السفينةِ الكَشْفية ، من حيثُ الصَّلابةِ ، والإرادةِ ، وحسنِ الإدارةِ ، وفنِّ معَامَلةِ المرءُوسينَ والأعوَان .

ولماذَا يتغيرُ «سكُوت» أو تتبدلُ مَوَاهبُهُ ، ومزايَا الرجلِ تظهرُ دائمًا فى البر والبحْرِ ، وفى الحر والبردِ ، وفى القطبِ وخط الاستواء ، على حَدٍّ سَوَاء ؟

وظلَّ «سكُوت» يَرْقَى من سفينةٍ حربيةٍ إلى أخرى أعظَمَ منها حتى رأينـاهُ ربانًا لسلسلةٍ منَ البوارجِ العظيمةِ منْ أمثال «ألبمارل»

و «إسيكس» و «بول وارك» . وقد تركَ فى قيادتهِ لكلٍّ واحـدةٍ منها أثرًا عظيمًا فى نفوسِ مَرْءوسيهِ منَ البحارةِ والضباطِ .

***

منذُ اللحظةِ التى ألقتْ ديسكفرى فيها مَرَاسيهَا فى مياهِ بحرِ المانشِ سنة ١٩٠٤ كان أبسطَ مكَافأةٍ للبطلِ الكوماندور «سكُوت» أنْ تُخْلع عليه رتبةُ «كابتن» . ومنذُ الآن سنطلقُ عليه اسمَ «الكابتن سكُوت» وهـو الاسمُ الذِى ظلَّ يحملُه إلى سنة ١٩١٢ حتـى لَقِيَ مصْرعه الأَلِيم عَلى ثلوجِ القطبِ الجنوبى بينَ الزمهريرِ والجُوع .

ولم ينشغلْ الكـابتن سـكُوت منـذُ عودتِـهِ عـنِ الكتابـةِ والبحـثِ ومُراجعـةِ مُذكراتـه ويومياتـه التـى كـانَ يدونـهَا فـى خـلالِ الرحلـةِ القطبيةِ الأولى.

وفكّر الرجلُ فى أنْ يطبعَ عنْ تلكَ البعثةِ كتابًا وإن كانَ غيرُ صاحبِ قلمٍ ولا بيَـان . فإنـه التحـقَ بالبحريةِ فـى سن الثالثةِ عَشْرة كما نعرفُ ، وهى سنّ لا يسمحُ ما قبلهَا بإجادةِ الكتابةِ ، وتنميقِ العبارَات .

ولكنْ هل يحتاجُ الرجـلُ الصـادقُ ، القـوىَ الملاحظَـة ، الدائـبُ النشاطُ إلى التزويقِ وهو يُعبر عن أصدقِ مشَاعره ، وأبسطِ خوَاطِره ؟

لقد كانَ كتـاب «رحلة الديسكفرى» الـذى نشره «الكـابتن سكُوت» حينذَاكَ ، أنجحَ كتابٍ عـنِ الرحـلاتِ اتسمَ بـالصدقِ والبسـاطةِ والبطولةِ

والرجولـةِ وعمـقِ الإحسَـاس . وتلقـفَ القـراءُ هـذا الكتـابَ حتـى نَفِـدتْ طَبْعَتُـه فـى زمـنٍ وجـيزٍ ، وتُرجـم إلى غـيرِ اللغـةِ الإنجليزيـةِ ، وعـاشَ القـراءُ فيـه مـع البطـلِ فـى صـراعٍ مـع الطبيعـةِ القاسـيةِ فـى ثُلوج الجنوب .

وصَارَ «الكابتن سكُوت» بطلاً قوميًا ، يُدير الصَّحَفِيُّونَ معه الأحاديثَ ، وتعقِدُ له الهيئاتُ النـدوَاتِ لإلقاءِ المحاضرات مـنْ شمالى إنجلترة إلى جنوبهَا ، ويهوَى إليه الناسُ منْ كلِّ صـوبٍ ليسمعُوا صَوْتـه ، وليروهُ رَأْىَ العين ، بعد أن سمعُوا عنه الكَثِيرَ . . .

وفـى سـنة ١٩٠٨ أحـسَ «الكـابتن سـكُوت» أنـه فـى حاجـةٍ إلى قلـبٍ يُشَـاطره لـذةَ الفخَـار ، وشـرفَ الانتصـار . إنـه الآن فِـى سـنَ الأربعـينَ يُدعـى إلى المجـالسِ ، ويتصـدّر الموائـدَ ، ويقـومُ فـى المجـامعِ ، ويجلـسُ فـى المحـافلِ وحيـدًا ، يغـدُو بمفـرده ، ويـروحُ بمفـرده ، ولا يُقَاسمـه هـذا المجـدَ قلـبُ المـرأةِ التـى تصنَـعُ بيديْهَا الأبطالَ !

وَهَبْ أنه الآن فى أولِ طريقِ المجدِ ، فلماذَا يقطعُ الطريقَ وحده ؟ ولماذَا لا يُؤنسه شريكٌ صالحٌ على مَدى الطَّرِيق ؟ ؟

لقد تـزوجَ فـى شهر سبتمبر مـن العام نفسِهِ بالآنسة «كـاثلين بروس» وهى ابنةُ رجلٍ منْ أطيبِ الأسرِ فى إقليم يُورك .

استعداد جديد

جلسَ «الكابتن سكُوت» ذاتَ صباحٍ فى مَكتبه الخاص بالمنزلِ الجديدِ الذِى اتّخذَه سَكَنًا له ، وقد دفنَ رأسَه بينَ أكداسِ الكتبِ والأوراقِ والخرائطِ والرسائلِ التى يجبُ أن يردّ عَلى أصحابهَا .

وكانَ منْ حينٍ إلى حينٍ يرفعُ بصرهُ إلى خَريطةٍ كبيرةٍ مُعلقةٍ عَلى جِدار الغرفةِ تمثلُ الأصقاعَ الجنوبية كما اجتازهَا فى رحْلته السّابقة ، أو يُطيلُ النظرَ فى ابتسامٍ إلى صُورةٍ فُوتُوغرافيةٍ لزوجَته موضُوعة أمَامه عَلى المكتبِ . لقد كانت تلكَ الابتسامةُ تعبيرًا لطيفًا عنِ السعَادةِ التى وجدهَا الكابتن سكُوت فى زواجِه من هَذِه السيدة .

والحقُّ أنّ «سكُوت» كَانَ سَعِيدًا منذُ عودتِه مِن بعثةِ القطب الجنوبى سنة ١٩٠٤ ، وكان أكثر سعادةً منذُ وَجدَ القلبَ الذِى يُشاطره مجدَه الحاضِر .

ولكنه فى الحق لم يكنْ راضيًا تمامَ الرضى عنْ نفسِه .

لماذَا ؟ لأنه لم يستطِع أنْ ينسَى القطبَ الجنوبى لحظةً واحِدَةً ! إنه لم ينسَ جبلَ إربوس وهو ينفثُ الدخانَ من فُوهةٍ بُرْكانه ! ولم ينسَ الحياةَ فى الأصقاعِ الجنوبيةِ عَلى الرغمِ مِنْ قَسْوَتها . . وكأنه كانَ يسمعُ رياحَ القطبِ وهى تهمسُ فى أذُنه منْ بعيدٍ :

« تعالَ أيها الرجلُ ! تعالَ وأكملْ واجِبَكَ! »

والآن يبدُو لَنَا أنّ عودَته إلى القطبِ الجنوبى ليسَت بعيدةَ المدَى . فإنّ هذِه الأوراقَ والرسائلَ والخرائطَ والقوائمَ والخططَ التِى يزدحمُ بها مكتبُه فى بيتِه السعيدِ لاشَك تتصلُ برحْلةٍ أُخرى إلى القطْب . . .

إنّ هذه الآلاف منَ الرسائلِ هى «طلباتِ الالتحَاق» أرسلهَا أصحابهَا إلى «الكابتن سكُوت» ليكُونُوا أعضَاء فى بعثتهِ الثَّانية .

لقد أعلنَ «سكُوت» عنْ حَاجته إلى سِتينَ عضوًا فى هَذِه الحملةِ القطبيةِ فجَاءه أكثرُ منْ ثمانيةَ آلافِ طَلَب . . .

وكثيرونَ جدًّا هم عشاقُ المغامرات ، وطلاّبُ المخاطراتِ الذينَ تُغْريهم مثلُ رحلةِ القطبِ الجنوبى عَلى الرغم منْ خُطُورتها ، ولكنّ هذِه الآلاف كانت حَريصَةً عَلى أن تنالَ شرفَ السفرِ فى رحْلَةٍ معَ «الكابتن سكُوت» وتحتَ قيَادته .

إنّ مواهبَ الرجلِ ، وأخلاَقِه ، ورُوحِه العَاليةِ قَدْ حَببت كثيرًا منَ الناسِ إليه ممن سَمِعُوا عنه أو سَمِعُوا منه .

وأُعلن فِى طُولِ البلادِ وعرضهَا ، بل أُعلنَ فى العالمِ كُلِّه ، أَنَّ بعثته ستذهبُ عنْ قريبٍ إلى القطبِ الجنوبى بقيادة «الكابتن سكُوت» وباسم «البعثةِ القوميةِ لارتيادِ القطبِ الجنوبى» .

وأعانتِ الحكومةُ هذِه البعثةَ بمبلغٍ منَ المالِ ، وتبرعَت كثيرٌ مِنَ الهيئاتِ والأفرادِ بمبالغَ طائلةٍ استجابةً لدعَاءِ «سكُوت» وتشجِيعًا

لأغراضِه العِلْميّة . وتطوعَ كثيرُ مِنَ رجالِ الجيشِ والبحريةِ ليكُونُوا أعضاءَ فِي هَذِه الحملةِ ، وأَذِنت لهم السلطاتُ المختصةُ بِذَلك .

والآن قد تعلَّم «سكُوت» كثيرًا منْ أَخَطائِه فى البعثةِ الأُولى . . . لقد كانَ عليهِ هَـذِه المرة أَنْ يشترى بنفسِه السفينةَ التى سَيُبحِرون عليها ، وأن يشرفَ عَلى تجهيزهَا وإعدادهَا بنفْسِه ، وأن يحملهَا بالزادِ والمؤنِ والضروريّاتِ اللاّزمة . وتقررَ أنْ يكونَ شهر يونيو من عام سنة ١٩١٠ هو موعدُ إبحار السفينَةِ .

ولم يكد «سكُوت» ينتهى منْ طعامِ الإفطار حتَّى لَبِسَ بزته[1] الحربيةَ عَلى عَجَل ، وخرجَ مسرعًا – كعَادته – فى طريقِهِ إلى ميناء لندن . ولم تسعفْه خُطُواته السَّرِيعة لبلوغِ غَايته فى وقتٍ مُنَاسب ، فاستدْعَى عربةً يجرهَا جوادَانِ ، كمَا كانتْ لندن فى ذلكَ الوقتِ ، وجلسَ يعدّ خطواتِ مَشْروعه عَلى أصابعِ يَديْهِ ، واحدًا ، واحدًا :

أولا : سأفتشُ السَفِينَةَ .

ثانيًا : سأقابلُ الدكتورَ ويلسن عَلى الغَداء ، لنتم اختيارَ العلماءَ اللازمينَ للبعثةِ ، عَلى أنْ يكونَ الدكتورُ ويلسن عَلى رَأسهم !

ثالثًا : سألقى حديثًا هامًّا بعدَ الظهرِ عَن أغراضِ البعثةِ لأزيدَ لها من جَمْعَ التبرعَات .

---

(١) البَزَّةُ: الشَّارَة.

رابعًا : سأحجزُ تذاكـرَ السكّة الحديـد للسفرِ إلى شمـالى إنجلـترة فى الأسبوعِ المقبلِ لإلقاءِ بعضِ المحاضراتِ العامةِ فى عدةِ مُدُن . .

خامسًا : سُأرسلُ برقيةً إلى «ميرس» . ومـيرس هـذَا هـو أولُ مَنْ وقـعَ عليـه اختيـار «سـكُوت» لهـذِه البعثـةِ . وقـد وصَـلَ الآن إلى مدينـةِ «فلاديفستك» فـى سيبريا ، واشْتَرى من هنـاكَ تسعةَ عشر منَ الخيـولِ المنشورية وجياد سـيبريا ، كمـا اشترى أربعـةً وثلاثـينَ مـنْ كـلابِ سيبريا التى تُستخدم فى جرِّ الزحّافاتِ عَلى الجليدِ .

سادسًـا : سـأمرُّ علـى المصنـعِ لأرى إلى أىِّ حَـدًّ بلغُـوا فـى صُنـعِ الزحّافات الآلية .

سابعًا : وسأمرُّ عَلـى فليـت ستريت - أو شارعِ الصحَافـة فـى لنـدن - لأتفقَ مع بعضِ الوكلاءِ هناكَ على طَرِيقةِ إمْدَادهم بأنباء البعثةِ منْ فوقِ الأصقاعِ القطبيةِ ذَاتها .

ثامنًا : وسأرجعُ إلى البيتِ فى وقتٍ مُنَاسب ، لأردَّ على ما يمكنُ الردّ عليه مِنْ أكداسِ الرسَائلِ التِى لَمَّا تُفتحُ إلى الآن !

تاسـعًا : وسـأتناولُ العشـاءَ فـى المسـاءِ المتـأخر مـع صَديقـى «جايمس بارى» (وهو من رجَالِ الصَّحَافةِ والقلَمِ) .

عاشرًا : ولم يتَّسع الوقتُ هنا لمشروعٍ عَاشِر ! فقد فتحَ له الحـوُذِى بابَ المركبةِ لينبهه إلى أنه قد بلغَ رصيفَ «الهند الغربية» بميناء لندن .

وأخيرًا وصلَ «الكابتن سكُوت» إلى حوضِ السفنِ في المرفأ المزدَحمِ لِكَيْ يلقى نظرةً تفتيشيّةً على السفينةِ الصَّغيرة «تيرانوفا» التِي ستحْمِلُهم إلىَ القطبِ الجنوبي . .

تيرانوفا ! ألم يترددُ هذَا الاسُم في سمعنَا قبلَ ذلك ؟ ألم تكنْ هي تلكَ السفينةُ التِي رافقتْ سفنيةَ الإنقاذ «مورننج» للبحثِ عنِ السفينةِ «ديسكفري» ونَجدتْها إذا كانتْ مُحتاجَة إلى نَجْدة ؟

نعم ! هي بعينهَا . . . لقد أحبهَا «سكُوت» منذُ وقعَ نظرهُ عليها . . إنّ اسمهَا يعني «الأرضَ الجديدَة» فلماذَا لا تكونُ سفينةً ملائمةً لبعثةِ غرضهَا الاستِكْشَاف ؟

لَقَدْ كانت قبلَ ذلكَ سَفِينة اسكتلاندية لصيدِ الحيتَان ، وقد رَاحَت وجَاءت في البحار القطبيةِ لمدةِ عشرينَ عامًا قبلَ ذلك ، فهي ليست جديدةً كُلَّ الجدة ، ولكنهَا صلبة سَلِيمة .

وكانت تبدُو في حوضِ الميناء ضَئيلة جدًّا بجانبِ أَخوَاتها العَمالقةِ الراسيَات هناك ، ولكنْ حينمَا كانَ «سكُوت» يجتازُ صقَّالتها الخشبيةَ فإنها كانت تغيرُ مِنْ نَظْرته إليهَا . . !

وكان لابدّ لها من إصلاحٍ وتجديدٍ وعمارةٍ جديدةٍ حَتَّى تُلاَئم غرضَ الحملةِ إلى القُطْبِ . فأنشئت على ظهرها ثلاجةٌ كبيرةٌ جدًّا لحفظِ الطَّعَام ، تستطيعُ أن تبتلعَ فِي جوفهَا ١٥٠ خروفًا مذبوحًا ، ثم تقولُ هَلْ مِنْ مَزِيد ؟!

وأنشئت بجانبهَا عدةُ مخازن أُخرى لخزنِ المئونَة ، ومخزنانِ مُبطنان بالزنكِ للبَارُود ، وغرفٌ للأجهزةِ العلميةِ وآلاتِ القياسِ والرصْد ، ومعملٍ صغيرٍ للبحثِ العلْمِي والتحْليل .

وجالَ «الكابتن سكُوت» جولةً فاحِصَةً دقيقةً خلالَ السفينةِ ، في صحبةِ الملازم البحرِي «إيفانس» الذِي عُين لقائدِ البعثة ، والذِي يرجعُ إليه كثيرٌ منَ الفضلِ في تحويرِ «تيرانوفا» إلى شكلهَا الجديد ، وكان «سكُوت» يُبْدي مُلاحَظاته ، ويُشيرُ بالرأيِ ليوضعَ هذَا الشيء هنا وينقلَ هذَا هناكَ . كما كانَ يستمعُ إلى اعتباراتٍ إيفانز وإلى وجهاتِ نَظَره في كثيرٍ منَ الاهتمامِ والتقْدِير .

ولا تنسَ أنَّ الملازمَ البحريَّ إيفانس ، هو غير سميه البحار إيفانس الذِي صحبَ «سكُوت» في رحْلته الأُولى ، والذِي كانَ له معه بعض التجاربِ المريرةِ في جَرّ الزحَافةِ والوقوع في الشقوقِ الثلْجِيّة !

وكم كانَ جميلاً أن يشتركَ البحّاران القديمانِ إيفانس ، ولا شلى في هذه البعثةِ الثانية ، علَى الرغم مما قاسياه في البعثةِ الأولى . كما اشتركَ أكثرُ رجالٍ تلكَ البعثة ، لأنهم ودوا - عنْ طيبِ خَاطرٍ - لو عملُوا تحتَ قيادةِ «سكُوت» في أيَ مكانٍ قَصِيٍّ منَ الأرضِ يذهبُ إليه .

وقُلْ مَا شئتَ إنَ نداءَ القطب الجنوبي قد دعَاهم إليه ثانيةً ، وإنَّ الأرضَ المجهولةَ قد دَعتهم مرةً أخرى إلى ارتيادهَا مِنْ جَديد ، وإنَّ حُبَّ المخاطرةِ قد حَمَلهم عَلى تجديدِ مراكبِ الأخطَار ، ولكن لا تنسَ أنَّ أخلاقَ «الكابتن سكُوت» وروحَه العالية قدْ أسَرَتهم إلى حَدٍّ بعيدٍ . . .

إلى القطب الجنوبى

فى الساعةِ الخامسةِ من مساء أول يونيو سنة ١٩١٠ كانت السفينةُ الصغيرةُ «تيرانوفا» تغادرُ المرفأَ بمن عليهَا من رجَالِ البعثةِ الشجعَان ، ومن خُيول منشوريَا الجياد ، ومن كلابِ سيبريا المعودَةِ أنْ تزحفَ على الثلُوج ، وبما تحملُه منَ الأطنانِ الكثيرةِ منَ الفحمِ والمئونةِ والطعامِ والشرابِ ، فى طريقهَا البعيد إلى الأصقاعِ الجنوبية لارتيادهَا ، وللوصولِ فى النهايةِ إلى قمّةِ القطب .

لقد كانَ كُلّ شىء معدًّا علـى السفينةِ وموضوعًا فيها بضبطٍ وإتقانٍ . حتى أكياسَ الفحمِ التى نَضَدَتْ [١] بعضهَا فوقَ بعضٍ فى المخازنِ الخاصّة ، وفى الممراتِ والدهَاليز ، وحتى صناديقَ أطعمةِ الكلابِ المملوءةِ بالبسْكُوتِ الخاص بهَا الملائم لها ، وحتى هَذِه الخمسةُ والأربعونَ طنًّا من علفِ الخيلِ الذِى اختيرَ لها بحسابٍ وتقدِيرٍ . . .

وهكذَا بهمةِ الملازمِ البحرِى إيفانس ، وبإشرافِ الكابتن سكُوت وتَرتيبه الدقيقِ تحولَت سفينةُ صيدِ الحوت «تيرانوفا» إلى سفينةٍ كشفيةٍ مزودةٍ بكلّ ما يخطرُ وما لا يخطرُ عَلى البالِ .

وكانَ كلُّ فردٍ فى السفينةِ قائمًا بعمَلِه المنوطِ به حينما أُديرت آلاتُهَا ، وَرُفعت مراسيها ، وهمّت بالرحيلِ . إلا شخْصًا واحدًا كانَ أولى أن يكونَ فى مقدمةِ الراكبين .

---

(١) نَضَدَتْ بعضَها فوقَ بعض : رُتِّبتْ ونُسِّقَتْ .

أين «الكابتن سكُوت» فى وسط هذَا الزحام ؟ أليست السفينةُ سفينتهُ والبعثةُ بعثته ؟ آه لقد تركهَا فى ميناء لندن تحتَ قيادةِ الملازم إيفانس نائبًا عنه ليتممَ هو فى إنجلترة مَا بقى منْ إجراءاتِ الرحلةِ ، وليركبَ سفينةَ بريدٍ سريعةٍ إلى مدينةِ الكابِ بجنوبى إفريقية ، ليجمعَ تبرعاتٍ أخرى من هناكَ ، وبعدهَا يلتحقُ بسفينته «تيرانوفا» حيثُ تكونُ فى مرسَاهَا بثغرِ الكَاب .

وفى مدينةِ الكاب التحقَ «سكُوت» بالسفينةِ ، بعد أن نجحَ فى جمع مزيدٍ منَ الإعاناتِ لهذه الحملةِ العلْمِية . والحقُّ أنهم لم يضنّوا عليه بما طلبَ من الأموال - وقد كانت ثقيلةً عليه هذِه العمليةُ - ولكنه اضطرّ إليها ليضمنَ للبعثةِ أكبرَ ما يمكنُ من الوسائلِ المادية التى تُعينها على نجاحِ مُهمتها.

وصعدَ «سكُوت» على ظهرِ «تيرانوفا» ليبدأَ قيادتها إلى البحَار الجنوبية ، وليتسلّم عجلةَ الربان منَ الملازم إيفانس الذِى كانَ سعيدًا بأن يسلّم الأمانةَ إلى رجُلهَا الوحِيد .

واصلَت السفينةَ سيرهَا الوئيدَ من مدينةِ الكاب متجهةً إلىَ الشرق البَعيدِ ، حيثُ بلغتْ ميناءَ «ملبورن» فى جنوبى أستراليا .



وهنا فى انتظار إنجاز بعضِ المعداتِ الأخيرة للبعثةِ ، قبل أنْ نقصدَ إلى نيوزيلندة ومنها إلى بحار الجنوبِ كانَ موزعُ رسائلِ البرقِ يصعدُ إلى ظهرِ السفينة ليحملَ إلى «الكابتن سكُوت» برقيةً مِنَ الرحالةِ النرويجى «أمندصن» يبلغُه فيها أنه فى طريقِه إلى مناطقَ القطبِ الجنوبى .

يا للمفَاجَأَة ! ليسَ «سكُوت» ولا أحدَ فى العالمِ كلِّه كان يخطرُ على بَاله أنّ هذا النرويجى المخاطرِ الصّلب سيسبقُ «سكُوت» إلى الأصقاعِ القطبيةِ الجنوبيةِ ، وخاصّة بعدَ أنْ كانت بعثةُ سكُوت علَنيةً ، بما أحَاطَ بها من وسائلَ المحاضراتِ والدعايةِ والترويجِ لجمعِ الإعانَات. . .

إن البرقيةَ قليلةُ الكلماتِ ، ولكنها تحملُ أكبرَ الدلاَلاَت . ومعنى هذا أنَ اكتشافَ القطب الجنوبى أصبحَ موضوعًا للمنافسة بينَ رجليْنِ مِنْ أعظمِ رجالِ الاستكشافِ والارتياد .

من أينَ جاءت هذه البرقيةُ العجيبةُ ؟ لقد أخذَ «الكابتن سكُوت» يُقلبهَا بينَ يديْه ، ويتفرسُ تاريخَ إرسالهَا[١] ، وخاتمَ البلدِ الذِى أرسلت

---

(١) تَفَرَّسَ تَاريخَ إرسَالهَا : نَظَرَ وتثبَّتَ .

منـه ، فتبـينَ فـى وضـوحٍ اسـمَ جزيـرة «مـاديرا» مـنْ جـزر المحيـطِ الأطلسى ، وهى بعينها الجزيرةُ التى مَرّت عليها السفينةُ تيرانوفا منذُ أن غَادرت بحرَ المانشِ فى شهرِ يونيو الماضى .

وقرأَ «سكُوت» هذِه الكلماتِ الوجيزةَ الخطيرةَ فى هدوءٍ وابتسامٍ ، ولكنَ موجةً منَ الوجومِ سَادت رجالَ السفينةِ جميعًا ، حتى لقد صَرّحَ بعضُهم - فى فورةِ السخطِ - أنّ هذَا العملَ من جَانبِ أمندصن يُعدّ مجافَاةً لأبسطِ قواعدِ المجاملةِ بينَ الرجالِ ، بل يُعد خدعةً منْ أصغرِ أنواعِ الخداعِ !

ولكنَ «سكُوت» هدّأَ منْ هذَا الشعور الساخطِ قائلاً فى منطقٍ مَعْقُولٍ :

أليستِ الأصقاعُ القطبيةُ الجنوبيةُ مفتوحةً للجميع ؟ وهل تتعارضُ بعثةُ «أمندصن» مع أغراضِ بعثتنا ، أو تعوقُ أعمالنَا ، أو تقطعُ علينَا الطريقَ ؟ وفوقَ هذَا فإن «أمندصن» ليسَ له سابقةُ خبرةٍ فى مناطقِ القطبِ الجنوبى ، فقد قرنَ إلى الآن جُهُوده بالقطبِ الشمالى. أما نحنُ فإن بحارَ الجنوبِ وثلُوجه وشقُوقه تعرفنَا منذُ بِضْعٍ منَ السنينَ !

وواصلتِ السفينةُ سيرهَا إلى نيوزيلندة ، وألقت مَرَاسيها فى ميناء ليتلتون ، حيثُ كانت تستكملُ آخرَ معداتها للرحلةِ إلى الجنوب وحيثُ كانت تستقبلُ «ميرس» و «بروس» بعدَ عودتهمَا من سيبريا مُزودين

بخيول منشوريا، وكلابُ سيبريا التى كانَ عليهما أنْ يُسَافرا بنفسيْهِمَا إلى روسيا لشرائِهَا واختيارهَا عَلى هَوَاهما كأحسنِ مَا يكونُ الاختيار.



وكان سطحُ السفينةِ الصغيرةِ المشْحُونةِ بمئاتِ الأطنانِ، والمحملةِ بالأوساقِ[1] يبدُو فعلاً كأنه حديقةٌ صغيرةٌ للحيوان ! . . . ولم يعدْ لجثثِ الحيتانِ المصْطَادة، ولا لزيتِ أكبادهَا الزفر الرائحة مكانٌ على ظهر تيرانوفا. . . فالكلابُ الآن مربوطةٌ فى السلاَسلِ الموضُوعةِ فى حلقاتٍ مثبتة عَلى سطحِ المركبِ، والخيولُ السيبيرية اللطيفةُ تُطل بأعناقهَا من فتحاتِ الإصطبلِ الذِى أنشئ لها بناءُ على تصميم خَاص ؛ والحارسانِ الموكلانِ بهذَا القطيعِ منْ حيواناتِ الجرّ يبدوانِ كأنهمَا بعض الحراسِ فى حَدائقِ الحيوانِ !

ظلتِ السفينةُ «تيرانوفا» فى ميناء ليتلتون بعضَ الوقت، ليتأكّدَ «سكُوت» منْ أنَّ كلَ شىءٍ عَلى مَا يُرام، وفى أواخرِ شهرِ نوفمبر سنة ١٩١٠ تحركت من هَذَا الثغرِ الجنوبى فى المعمور منَ الأرض، لتأخذَ طريقهَا إلى غيرِ المعمور . . .

---

(١) الأوْسَاق : حِمْلُ السَّفينةِ : والجمع أوسَاق .

وكانت ملاحظةُ الأحـوالِ الجويةِ ضروريـةً لسفينةٍ مثلِ هـذِه مُحملـةً بأثقلِ المؤنِ والمتاع ، ولكن البحـرَ والريـحَ وعواملَ الطبيعةِ كلّهَا أبـتْ إلاّ أنْ تبدأهَـا بامتحـانٍ عنيفٍ ، واختبـارٍ قـاسٍ . كأنـهَا تريـدُ أن تعـرفَ قُدرتها عَلى خوضِ الأهْوَال !

لقد هَبّت عاصفةٌ هَوْجَاء ، وتعالَت الأمواجُ كالجبال ، وتَقَـاذفت هـذِه السفينة الصغيرة منْ كلّ جانبٍ ، حتى عَلت ظهرَهَا وأخذَت تتكسرُ عليه كما تتكسرُ الأمـواجُ علـى شـواطئ البحَـار . وأخــذت الأمــواجُ تعصـفُ بالكلاب المربوطة فـى سلاسلهَا حتـى كَادت تختنـقُ جميعًـا . ولم تسلَم خيولُ سيبريا مـن هَـذِه النكبةِ ، فمـات واحـدٌ منها ، وتبعَـه آخـرٌ . وكـان «أوتس» الموكَلُ بحراسةِ الخيلِ سَـاهرًا علـى رعايتـهَا وملاحظتـهَا حتـى لا تغرقهَا المياهُ . وكان منظرُ الخيـلِ مثيرًا وهـى ترفعُ أرجلـهَا فـى جـهدٍ عنيفٍ لتتفادى الأمواجَ الكاسِحَةَ تحتهَا .

وكأنَ هذه النكبة لم تكْفِ هذه السفينةَ الصغيرةَ ، فقد انسدّت أنابيبَ المضخّـاتِ فـى قاعِ السفينةِ ، ولم يكـن بـدّ مـن أيدٍ كثيرةٍ تعمـلُ لـنزْحِ المياه الملطخةِ بالزيتِ وترابِ الفحم ، وتنظيفِ الأنابيب .

وهنَا تظهرُ روحُ التعاونِ بأجْلى معانيـهَا فـى «الكـابتن سـكُوت» الذِى قام بِنَصيبه فى هذِه العمليةِ الشاقةِ القذرةِ فى رضىً وابتسَام .

وفـى خـلالِ هـذَا الهـولِ الشديدِ يصـورُ لنـا الدكتورُ ويلسـن – رئيـسُ علماءِ البعثة – ظاهرةً طبيعيةً كأنها كانت بشيرُ الأمل وضوءُ الخلاصِ فـى

ظلامِ الخطُوب . . لقد كانت السماءُ حالكةَ السّوَادِ كلوْنِ المِدَاد ، والماء فى كلِّ شبرٍ فى داخِلِ السفينةِ ، والمرءُ لا يتبينُ مَا أمَامه من شدّةِ الظلام ، وإذا بقطعةٍ من قوسِ قُزح تبدُو لما يقربُ من نصفِ دقيقة ثم تَخْتفى ، كأنها نورُ الأملِ فى قلُوبِ البَائِسينَ .

وقد استبشرَ الدكتورُ ويلسون بهذِه الظاهرةِ ، واتخذَ منها دليلاً على الفرجِ بعدَ الشدّةِ ، وعَلى الضياءِ بعدَ الظلامِ .

وانتهت العاصفةُ ، وانجلت السماءُ ، ونزح الماءُ ، وعَاد الهدوءُ إلى الجو ، ولكنّ واحدًا منْ هؤلاء الشجعانِ لم يفقدْ مَعْنويّاته ، لأنّ قائدَهم ورائدَهم كان يمتازُ بروحِ عَاليـة ، فكانوا يغنونَ وينشدونَ الأناشيدَ والخطر منهم عَلى أطرافِ الأصَابع . . .

* * *

نحنُ الآن فى صباحِ الأربعاء ، وفى اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وقد لمحَ رجالُ البعثةِ جبالَ الجليدِ وهى تشرفُ بقممهَا على مساحَاتِ الثلُوجِ المنبسطةِ وراءهَا . لقد شبههَا الملازمُ إيفانس تشبيهًا جميلاً ، حيثُ تبدُو كأقماعِ السكرِ الهائلةِ الضخمةِ وهِى تعومُ فوقَ بساطٍ منَ المياه !

إنّ هذِه الجبالَ الثلجيّةَ العائمةَ على البحار الباردةِ المياه عَلامةٌ أكيدةٌ على أنَ الصحارى الجليديةَ الممتدةَ ، والمياهَ الجنوبيةَ المتجمدةَ ، على مَدًى قرِيب . . .

وأخـذَت «تيرانوفا» تشقّ طريقهَا بجهدٍ وببطءٍ بينَ كتبانِ الجليدِ المتجمدةِ عَلى المياهِ هنَا وهناكَ . وهي تلالٌ منَ الجليدِ تجعلُ سيرَ السفينةِ عملاً من أشقّ الأعمالِ .

وانفتحَ البحرُ أمَامهم من جديدٍ بعدَ أن انتهت منطقةُ هذه الكثبانِ الجليديةِ ، ولكنهم عَادوا ليصادفوهَا فى طَرِيقهم من جَدِيد .

وهنَا كانَ الدكتورُ ويلسون يسجلُ مُلاحظاته العِلْمية ، على حينَ كانَ مَفتونًا فى الوقتِ نفسِه بضوءِ النهار الرائِع فِى هذِه البقاعِ وقد تلونَ بالزرقةِ والخضرةِ خلالَ جبالِ الجليدِ وكُثبان الثلُوج . على حينَ كان يتحولُ بياضُ الثلوجِ فى منتصفِ الليلِ إلى حمرةِ الأرجوانِ المختلطِ باحمرار الورُود ، بينمَا تبدُو السماءُ فِى خُضرة اللّيمون ، دونَ أن تغشيهَا سحابةٌ واحدةٌ . . .

كـان هـم «الكابتن سكُوت» أن يبحثَ عن مكانٍ ترسُو فيه السفينةُ ، وينزلُوا إلى أرضٍ يقيمونَ عليها كُوخَهم الذِى سيكونُ قاعِدَتهم الكُبرى للارتيادِ وأول مركزٍ لتموينِ البعثة . وأنزلَ سكُوت أحدَ القواربِ وركبَ فيه ليبحثَ عن مكانٍ صالحٍ لإقامةِ الكُوخ . وهناكَ فى مكانٍ أسموه «سكوارى» "Skuary" انتهى بهم المطافُ إلى محلةٍ أمينة .

وهنا بدأت عمليةُ إنزالِ المؤنِ وتفريغِ السفينةِ منْ أحمالهَا ووضعهَا فى الخيمةِ التى شُيدت بإتقانٍ دَقيق . وفِى أقل منْ أسبوعينِ كانَ

الكوخُ الرئيسى للبعثةِ مقامًا ومملوءًا بالمؤنِ والمعدّاتِ التى وُضِعَت فيه بترتيبٍ وإحْكامٍ.

ولكنّ المتاعبَ والنكباتِ التى نزلتْ بهم فى البحرِ بعدَ إبحارهم من نيوزيلندة قد أثرتْ فى خُيول منشوريا إلى حدّ كبير ، فلم يعدْ لها قوةٌ على احتمالِ الركْضِ فوقَ الثلُوج . وأكثرُ منْ هذا فإنها خُيول لم يكنْ أُحسن اختيارُهَا لتلائمَ هذِه البقاع . وبدأت أقدامهَا تغوصُ فى الجليدِ الرخفِ غير المتماسِك ، وهى تتنقلُ مع الكلابِ من مكانٍ إلى مَكَان . واضطرَ «سكُوت» أنْ يُرسل فريقًا من الكلاب إلى مركزِ التموين ليحضرَ بعضَ النعالِ التِى تُوضع فى حوافِرِ الخيلِ للسيرِ بهَا عَلى الجليد . . .



أما الكلابُ فلم تكنْ أَحسنُ حالاً منَ الخيول ، ولم يكنْ لها خَبير بها أو مدربٌ لها يعرفُ كيفَ يُرَوضها علــى اجتيـاز هـذِه الظـروف . وبـدأَ «سكُوت» يدونُ فِي مُذكراتـه ضعفَ ثقتِه فـي أنْ تمضِـيَ معـه كـلابُ سيبيريا إلى نهايةِ الشوطِ . . .

وتحركـت «تيرانوفـا» شـرقًا لترسـى فريقًـا مـن البعثـةِ فـوقَ أرض «الملك إدوارد السابع» ، ومـا كـادُوا يجتـازونَ «خليـجَ الحيتـان» فـى الحـاجزِ الثلجـى الكبيرِ حتـى وجـدُوا السـفينة «فـرام» وهـى سفينةُ الرحالةِ النرويجى أمندصـن راسـيةً ، ورجـالُ حملتـها يزحفـونَ فوقَ الثلوج . .

وسادَ السخطُ مرةً أخرى فـى مُعَسْـكَرِ «سـكُوت» حينمَـا رأوا بعثـةَ مُنَافسهم النرويجى فعلاً أمامَ أعينهم ، وقد أتاحتْ لها الظروفُ أن تسبِقَهم ببعضِ الوقتِ إلى ارتيادِ القطب . .

وتوالـت الأسـابيعُ والشـهورُ مـن عـام سـنة ١٩١١، وكـانت البعثـةُ تتحيّـنُ الوقـتَ الملائـمَ للانحـدار إلى القطـبِ قبـل أن يصـلَ إليـه «أمندصـن» . وكـانَ زحـفُ رجـالِ الحملـةِ علـى الثلُـوج عمـلاً محفوفًا دائمًا بالأخطار . وقـد أثبـتَ الكـلابُ والخيـولُ عجزهَـا عـنْ جَرِّ الزحافاتِ لأنها لم تكنْ مُدَربة ، ولم تكـن فـى أيدِى رجالٍ عرفُوا كيفَ يُدِيرونهَا .



وكانت خطةُ «سكُوت» أن تستعملَ ثلاث وسائلَ للانتقالِ عَلى هذه الأصْقاعِ : الزحّافاتُ الآليةُ التى صُمِّمَت بعنايتهِ وتحتَ مُلاَحظته فى لندن ، والكلابُ ، والخيولُ . ولكن «ثلاجة بيردمور» و «هضبة القطب الجنوبى العالية» لم يكنْ من وسيلةٍ لارتيادهمَا إلا على أقدامِ الرجَال ! الرجالُ الذِينَ يجرونَ أو يدفعونَ الزحّافات العادّية فوقَ كتلِ الجليدِ الجَامدةِ ، أو فَوقَ الثلوجِ الرخْفَةِ الطريَّة .

❊❊❊

نحنُ الآن فى شهر أكتوبر سنة ١٩١١ وفى اليومِ الرابعِ والعشرينَ منه حيثُ لم يعدْ للزحّافاتِ الآليةِ وجُود . إنَّ واحدًا منها قد ابتلعه

الثلجُ فاختفى اختفاءً تامًّا من يدِ «كامبل» فى ينايرِ الماضِى حينمَا نزلُوا إلى الأرض لأولِ مرّة . أما الاثنان الآخران فقد أنجزَا المهمةَ عَلى أسوأ الوجُوه ، ولم يعيشَا طويلاً فى تلكَ الظروفِ القَاسية . وقد لاَقى فريقُ هذه الزحَافات - بقيادةِ الملازمِ إيفانس - إرهاقًا شديدًا لنقلِ المؤنِ والعتادِ الذِى كانت تَحْمله تلكَ الزحَافات. . فكانَ عملاً منْ أشقَ الأعمالِ ، وأملئهَا بالشجَاعةِ وقوةِ الاحتمالِ .

وفى ٣١ أكتوبر بدأ تسعةُ عَشرَ جوادًا من الخيولِ المنشوريةِ تجرّ الزحافاتِ العادية ، ولكنها لم تستطع أن تتمّ الرحلةَ إلى مركزِ التموينِ العام ، فقد بقى منها عَشر خُيُولٍ ، ونَفَقَت بقيتهَا على الطرِيق .

وكم كانَ الضابطُ «أوتس» المشرفُ على أمرِ الجيادِ صَادقًا حينما فقدَ الأملَ فيها من أولِ يومٍ لما سَاخَت قوائمهَا(١) فى الثلُوج . وكان يعدهَا عبئًا ثقيلاً على البعثة ، ولكنه مع ذلكَ لم يُقَصر لحظةً واحدةً فى العنايةِ بهَا ، والإشفاقِ عليهَا . فما ذنبُ هذه الحيواناتُ اللطيفةُ الذكيةُ إذَا كانتِ الظروفُ الطبيعيةً فوقَ احتمالهَا ؟ إنه ذنبُ الذينَ ساقوهَا إلى هذِه الظَروف . . .

---

(١) سَاخَتْ قوائمُهَا : غَاصَتْ فى الأرضِ .

أما فريقُ الكلاب التى تجرّ الزحّافاتِ فكانَ أحسنَ حظًّا من زملائه . ولكنَّ الفريقينِ – عَلَى كلّ حالٍ – أدركُوا مستودعَ «ونطن» حيث كان الملازم إيفانس ، على رأسِ فريقِ الزحافاتِ الآليةِ الضائعةِ ، فى انتظارهم .

وفجأةً سَمعَ فى السكونِ المطبقِ عَلى الثلوجِ صوتُ طلقاتٍ ناريةٍ زادتْ من وحشَةِ هَذَا الهدُوء . إنها طلقاتُ الرصّاصِ من مسدسِ الضابطِ «أوتس» صوبهَا على الخيولِ التِى تقررَ إعدامهَا لأنها لم تعدْ صالحةً للحياةِ فى قَسَاوةِ هَذِه الظّروف . . .

على قمة القطب

فى الأسبوعِ الأولِ من ديسمبر سنة ١٩١١ كانَ فريقُ «سكُوت» فى الزحف إلى القطبِ الجنوبى عند سفحِ «ثلاجة بيردمور» ، ولكنّ عاصفةً شديدةً أفسدتْ عليهم خطّتهم فى الصعودِ إلى سطحِ الهضبةِ الجليديةِ القطبيةِ ، لقد ارتفعت الحرارةُ بعضَ الشىء ، لأنّ هذا الموسمَ هو فصلُ الصيفِ فى نصفِ الكرةِ الأرضيّة – فأذابت بعضَ الجليدِ والثلوجِ حتى كانَ كلّ شىءٍ تحتَ أرجلهِمْ وفوقَ رُءُوسهم وَحَوَاليهم مبللاً بذوبِ المياهِ[١] إلى حدٍّ لاَ يُطَاق . وعطّلتهم هذه الحياةُ أربعةَ أيام لم يتقدّموا فيها خطوةً واحدةً ، مع حَاجتهم إلى السباقِ لبلوغِهم قمة القطبِ قبلَ مُنَافسهم النرويجى الجرِىء . .

---

(١) ذَوْبِ المياه : المرّة مِنَ الذَّوْب .

ولنقفْ قليلاً عندَ ثلاجة «بيردمور» لنعرفَ شيئًا عنها ، إنها نهرٌ مُتجمد من المياهِ العذْبة ، يتحركُ حركةً بطيئةً جدًا لا تُدركُ منْ فوق الهضبةِ المتجمدةِ . إنه أطول وأضخم نهرٍ ثلْجى فى العَالم كُلِّه ، حيثُ يبلغُ طوله ١٢٦ ميلا ، ويبلغ ارتفاعُه فوقَ الحاجزِ الجليدِى العظيمِ عشرة آلاف قدم فى أعْلى مَوَاضعه.

وفوق هذَا المرتفع الثلجى الخطِر بمنحَدَرَاته ، وشُقُوقه وثلُوجه العمِيقة ، وأخاديدِه الضيقَة كانَ على الزحَافات أنْ تؤدى مُهمتها ، وما أخطرهَا ، وأشقهَا منْ مهمَّة . . !

واضطرَ «الكابتن سكُوت» أن يعيدَ بعضَ الرجالِ والكلابِ تخفيفًا لأعباءِ الأحمالِ والطعام ، ولم يبقَ متقدمًا فى الزحفِ إلا بضعةً مِنْ أشدَّاء رجالِ البعثةِ الذينَ يستطيعونَ أن يجرّوا الزحَافات بأيديهم . .

وكانَ صراعُ هؤلاءِ الزاحفينَ مع الطبيعةِ القاسيةِ مضربَ الأمثالِ . لقد تعرضُوا للبهر القطبى الذى يكادُ يخطفُ الأبصارَ ، كما تعرضُوا لعضَّاتِ الصقيعِ التى تهرأُ الأطرافَ ، وأخيرًا بلغُوا ظهرَ الهضبةِ بعدَ جُهدٍ وعَنَاء ، بَلَغُوهَا فى أخريَاتِ ديسمبر - أو يومَ منتصفِ الصيفِ فى نصفِ الكرةِ الجنوبى ، حيثُ يجبُ أن يكونُوا فى ذلكَ اليومِ على قمةِ القطبِ نفسِه لو سَاعفتهم الحظوظُ ، وسَاعَدتهم الظروفُ .

وماذَا كانُوا يستطيعونَ أنْ يصنعُوا غيرَ ذلكَ وقد كانَ مجهودهم مما لا تطيقُه قوةُ الإنسان ؟ لقد كانُوا يقطعونَ في أحسنِ أيامهم ثلاثةً وعشرينَ ميلاً في الليل والنهار ، ولكن كانت هناكَ أيامٌ عنيفةٌ تقطعُ القلوبَ ، حيثُ كانُوا يقطعونَ نصفَ الميلِ في تسعِ ساعَاتٍ . . .

والآن بعدَ هذَا الجهدِ الذِى فوقَ طاقةِ البشرِ هل بَلَغُوا قمةَ القطب ، وهى الغايةُ التِى من أجلهَا كابدُوا كُلَّ هذِه الأهوال ؟ لا ! لا ! إن عليهم أن يقطعُوا فوقَ ذلكَ ٣٧٢ مِنَ الأميال . . .

وأصرَّ «سكُوت» على أن يتخلفَ فريقٌ من فرقِ الزحّافات عائدينَ إلى القاعدَةِ الرئيسيةِ ، وأن تستمرَّ فرقتانِ في الزحْف إلى الجنوبِ .

وكان الفريقُ الأولُ يتكونُ منَ «الكابتن سكُوت» ، والدكتور «ويلسن» والكابتن «أوتس» ، والصُّول «إيفانس» .

أما الفريقُ الثانى فكانَ قوامُه الملازمُ إيفانس ، وباورز ، ولاشلى ، وكريان .

ولم يكنْ ما بقَى منَ المرحلةِ بأهونَ مما مضَى منها . . لقد هبطت درجةُ الحرارةِ ، واشتدّت الرياحُ الباردةُ في عصفهَا حتى كانت وجُوههم لا تقوى على لذعاتهَا ، وسَاقهم الحظّ السيئُ إلى الثلُوج

الرخفةِ مرَّةً أخرى ، حتى صارَ مستحيلاً على فريقِ الملازم إيفانس أن يواصلَ المسير . . .

❋❋❋

انتهى عام سنة ١٩١١ كله يحملُ في طَيَّاته ذكرياتِ صراعٍ عَنِيفٍ ، وبطولةٍ كاملةٍ ، وإرادةٍ تتحدّى الطبيعةَ ولا تنهزمُ أمامَها . ونحنُ الآن في اليومِ الثاني من عام سنة ١٩١٢ الجديد .

ولمحَ «سكُوت» ورفاقُه طائرًا يصفِّقُ بجناحيْه في الجو على ارتفاعٍ قليلٍ ، ثم يهبطُ إلى الأرضِ - إلى صحارى الجليدِ ، عَلى مقربةٍ منهم .

آه ! هذا هو النّورس المائى الذِى يعيشُ فى المناطقِ المعتدلَةِ ، فما الذِى جاءَ بك إلى هذه الأصقاعِ المتجمدةِ أيها الطائرُ الغريبُ ! ؟

آه ! أجئتَ تؤنسُ هؤلاءِ في عُزلتهم الكئيبةِ الموحشةِ ؟
أم أنت تَائه رمتكَ الأقدارُ إلى هذَا الموطنِ البعيدِ ؟
لا بأسَ ، لا بأسَ أيها الطائرُ الغريبُ ، فالشاعر العربى يقول :

وكُلّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ

هنَا حاولَ الرجالُ أنْ يُمسكوا هذَا الطائرَ الزائرَ عَلى غيرِ توقُّع ولا مَوْعدٍ ، فطارَ منهم إلى حيثُ لا يعرفونَ . . .

وفى اليومِ الثالثِ من ينـاير سنة ١٩١٢ لم يكـن بينـهم وبينَ القطـب إلا ١٥٠ ميلا فقط ، ستمضِى كما مضَت قبلها آلافُ الأميالِ فى البحَار ، ومئاتُ الأميالِ فوقَ صحارى الجليدِ .

إنَّ فريقَ الملازم إيفـانس عـاجزٌ تمامًـا عـنْ أنْ يتـابع الخطَـى إلى الغرضِ المنْشُود . فلم يكُن مفرّ مـن أن يتخلـفَ هـذا الفريقُ مكتفيًا بأن يظْفر من الغنيمةِ بالإيابِ . . كما تخلّف مَنْ قبلهُ منَ الأعضاءِ .

ولكن واحدًا منهم أبَى أنْ يعودَ ، وتوسّل إلى «الكابتن سكُوت» أ َنْ ينضمَّ إلى أربعتهم ليكونَ خامسهم فى الوصولِ إلى القطْب . . ذلكَ هو الملازمُ البحرى باورز ، الذِى كانَ «سكُوت» يُقدره أجمـلَ تقديـرٍ ، فلـم يشأْ أنْ يجعلَ توسّلاَته تضيعُ فى الهوَاء .

وكانَ قبولُ «الكابتن سكُوت» للملازم باورز فـى فريقهِ الربَاعى خَطَأً يدخلُ فـى حسابِ النكبـةِ التـى أَصَابتـهم جميعًا . فقـد وُضِعـت الخطـطُ والترتيباتُ ليكونَ فريق «سكُوت» أربعةً كما هو ، لا خمسةً كما صـارَ الآن بعـد انضمـامِ «بـاورز» إليـه . وكـان الطعـامُ والتموينُ مُعِدًّا لأربعَةٍ فَقَـطْ ، حتى الخيام كانت مُعدةً لأَربعةٍ ، حتى مواقد الأفرانِ فى المطبخِ كانت مُعدّة لأربعةٍ ، حتى الأطباق والأكواب كانت لأربعة منَ الرجالِ ، فزيادةُ واحدٍ عليهم بعدَ الحسابِ والتقديرِ هو خطأٌ لم يكـن ليصـحَّ صدُورُه مـن عقليةٍ منظمةٍ مرتبةٍ مثل عَقْلية «الكابتن سكُوت» . . .

وما ظنكُم برجلٍ يزيدُ على جماعةٍ قد أعدّت لكلّ شيءٍ حسابهَا ، وهو لم يكن في الحسابِ ولا في الحسبَان ؟

مِسْكين «باورز» حتى لوح الانزلاقِ على الجليدِ الخاص به لم يكنْ معه . . .

واستمرت الأهوالُ تصادفُهم منْ لحظةٍ إلى أخرى خلالَ زحفِهم إلى الجنوب . حتى كانتِ اليومياتُ التي تركهَا «سكُوت» إلى منتصفِ شهر يناير مملوءةً بالعباراتِ اليائسَةِ ، والجملِ المملوءَةِ بضياعِ الآمالِ مثل قوله: «رحلةٌ شاقةٌ إلى أبعدِ الحدُودِ . . . لم نصَادفْ زحفًا قاسيًا عنيفًا مثلَ هذا . . . إن الظروفَ ساءتْ أكثرَ مما كانتْ عليه قَبْلاً . . . إنّ الجرّ للزحافاتِ أصبحَ عمليةً ثقيلةً لا تُطاق . . . » وغيرها من هذِه النغمَات !

ولكن لا بأسَ أيها الأبطالُ ، فإنّ الصعبَ يهونُ متى وطَنت النفوسُ عزمَها على احْتِماله . فنحنُ الآن في ١٥ يناير سنة ١٩١٢ ، والمسافة بينَنا وبينَ القطبِ الجنوبي ثلاثونَ فقط منَ الأميال !

فلا بأسَ الآن منَ الاستراحةِ ونصبِ الخيام !

وفي اليوم التالي قوضُوا خيامهم ، ورفعُوا أوتَادَهُم ، وَطووا متاعَهُمْ ا ووضعُوا ذلك على الزحافاتِ ليبدءُوا الجرّ والزحفَ على الجليدِ منْ جَدِيد .



وكانَ بدءُ تحركِهِم فى الساعةِ الثامنة من الصَّباح ، وما كادَ يحينُ وقتُ الغَداءِ حتى كانوا قد قطعُوا ثمانيةَ أميالٍ !

ثمانيةَ أميالٍ ! لا بأس ! فلم يبقَ على القطبِ إلا اثنانِ وعشرون ميلاً ! وواصلُوا الانحدارَ مُسرعينَ نحوَ القطب ، وإذا عينُ «باورز» الحادة النظر تتبينُ فيما وراءَ الأفقِ على مَدَى الثلوجِ المترامية ، شيئًا يبدُو كأنه معلمٌ منْ معالمِ الطَّرِيق !

إنه لمْ يشأ أنْ يصدّقَ عينيه ، وغالطَ نفسَه بأنَ ذلكَ قد يكونُ بعضَ نتوءٍ فى السطحِ سبَّبَتْهُ الرياحُ !

ولكنْ بعدَ نصفِ ساعة تأكّد منْ وجُودِ رقعةٍ سوداءَ !

أيةُ رقعةٍ سودَاء ؟ ؛ وهل سُمِعَ فى الكتبِ – أو فى الأساطيرِ – أ نَّ فى القطبِ رقاعًا سودَاء ؟ !

لقد تقدمُوا فى زحْفهم ، ويكاد القنوطُ يشلُّ خُطَاهم ، ويكادُ الشعورُ بالمرارةِ يقيدهُم فى أماكِنِهمْ . .

لقد تبينُوا فى يوم ١٦ ينـاير سنة ١٩١٢ أن هـذِه الرقعةَ السوداءَ التِى لمحها «باورز» من بعيدٍ لم تكنْ غيرُ العلمِ النرويجى الذِى رفعهُ أمندصن قبلَ وُصُولهم ، دِلاَلة على أنه أولُ رجلٍ وَطئت أقدامُه هذَا المكانْ .

وأخذتِ الدهشةُ «الكابتن سكُوت» بعضَ الوقت ، بل أخذه شعورٌ بالخيبةِ لأنه لَمْ يكتب له قبل غيره الانتصَار .

لا ! إنه انتصَـر . . . إنه قهرَ القطبَ الجنوبى ، ولكنه كانَ يودُّ ألا يسبقَه أحدٌ إلى هذَا النصرِ الذِى هو أشبه بالهزائمِ فى نظرِ الأبطَال . . .

وكم كانَ «أمندصن» بطلاً ، ورجلاً ، ونبيلاً حينَ غا[درَ] القطبَ الجنوبى بعد انتصاره عليه ، وتركَ لمنافِسهِ «الكابتن سكُوت» هَذِه الرسالةَ التاليةَ التِى كانت خالية مِنْ إبراز الانتصَار ، أو غُرور الافتخَار . .

القطب الجنوبى

١٥ ديسمبر سنة ١٩١١

عزيزى الكابتن سكُوت

بما أنكَ منَ الراجحِ ستكونُ أولُ من يبلغُ هذِه البقعـةَ بعدنَـا ، فإننى أرجُو منكَ أن تتعطّفَ بتوصيلِ هذِه الرسالة إلى الملكِ هاكون السابع . وإذَا بدَا لكَ أنْ تستفيدَ بشىءٍ مما تركتـه لـكَ فـى الخيمـةِ فـأرجُوك ألا تتردد فى ذلكَ . أما الزحافةُ التِى تركتـها خـارجَ الخِيمـةِ فيسرنِى أن تكونَ ذاتَ نفعٍ لكَ .

وأرجُو لك – مع أطيبَ التحياتِ – عودةً سَالمةً .

المخلص

ر . أ مندصن

شهرٌ واحـدٌ ليسَ بكثيرٍ فى الحساب الزمَنـى بـينَ وصُولٍ ووصُـولٍ ، ولكنـه فـى حسَابِ التاريخِ والتسابقِ عَلَـى الاستكْشَافِ شـىءٌ كثيرٌ . إن الفرقَ بين البطليْنِ شهرٌ واحدٌ هو الذِى أضَاعه «سكُوت» ورجَالُه – عنـدَ نُزُولهم من السـفينةِ تيرانوفـا – لأن خيـولَ منشـوريَا وجيـاد سـيبريا لم تستطعْ مواجهةَ الظروفِ الجوّيةِ والجليديّة حينذَاك .

كانَ هذَا الانتصارُ الذِى لم يتوّجْ بالسبقِ والأوليةِ المشهدَ قبلَ الأخـيرِ لقصةِ البطل «سكُوت» .

وكانَ أولى بنَا أن نسدلَ الستارَ عَلى هذَا الانتصَار لترتفعَ الأكفّ بالتصفيقِ ، والحناجرُ بالهتافِ للبطلِ الذِى يستوِى عنده أن يجىءَ أولاً وثانيًا مادَام قد أتم واجِبَه ، وأكملَ رسَالته . ولكن الستارَ يأبى إلا أن يسدلَ على مأساةٍ أليمةٍ ، هى قصةُ مصرعِ هؤلاءِ الأبطالِ الخمسةِ فى طريقِ عَوْدتهم مُتوجينَ بأكاليلِ الغار .

لقد خارتْ عزيمةُ الصول إيفانس ، وعضّه الصقيعُ حتى هَرَأَتْ أطرافُهُ فمات فى ١٧ فبراير سنة ١٩١٢ ، ودُفن فى جوفِ الثلوجِ التى طَالما صارعهَا حتى صَرعته آخرَ الأمر .

أما «أوتس» فقد قاومَ حتى ١٥ مارس ، وكان أعجزَ منْ أن يخطُو خطوةً واحدةً ، حينمَا حَاصرتهم عاصفةٌ عاتيةٌ . فآثرَ أنْ يخرجَ منَ الخيمةِ ليواجهها ، لعلهَا تريحُه منَ العذابِ الأليمِ الذِى كانَ يُعَانيه . . .

وفعلاً أراحَته العاصفةُ ، وغيبتهُ الثلُوجُ فلم يُوقف له عَلى أثرٍ . . . أما الثلاثةَ الباقونَ : الكابتن سكُوت ، والدكتور ويلسن ، وباورز فقد أصرُّوا على تحدِّى الطبيعةَ إلى أبعدَ الحدودِ . .

ففى يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٢ كانُوا على بعدِ ٢٤ ميلاً من مستودع التموينِ ، ولكنّ الرياحَ المجنونَة العاتيةَ المتقلبة هبّت عَلَيهم ، وأُصيبَ «سكُوت» نفسُه بعضّةِ الثلُوج فى أطرَافه ، حتى أصيبت قَدَمُه اليمنى بالشَللِ فلم يعدْ يستطيعُ أنْ يحركهَا . ولم يكنْ أمامه من رجَاءٍ إلاّ أنْ تُبتر حتى لا يستشرِى الداءُ فيه . ولكن العاصفةَ لم تمهلْهم . فقد اشتدّ



الزمهريرُ القارسُ ، واشتدّ عصفُ الرياحِ ، وتساقُطُ الثلجِ بغزارةٍ منَ السماءِ حتّى لم يعد أحدٌ يتبينُ مَا أمَامه . ولكنهم استمرُّوا فى الزحِف لعلّهم يبلُغونَ مستودعًا مِنْ تلكَ المستودعَاتِ التى كانُوا يقيمونهَا فى طَرِيقهم إلى القطبِ كمراكز للإنقاذِ والتموينِ .

ولكنّ الطبيعةَ كانت أَقْوى منهم ، فقدْ ألجأَتهم إلى الخيمةِ حيثُ حُوصروا أيامًا بلاَ زادٍ ولاَ شرابٍ ولاَ وقودٍ ، وحيثُ كانَ «الكابتن سكُوت» يكتبُ فى مُذكراته آخرَ كَلمةٍ وجههَا كرسالةٍ إلى بَلادِه يقولُ فِيهَا :

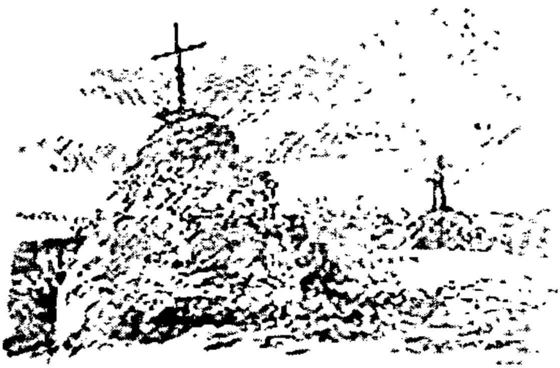
«لوْ أننَا كُتِبَ لَنَا أنْ نعيشَ لقصصتُ عليكمُ قصّةَ البسَالَةِ ، والاحتمالِ ، والشجاعةِ التى أبداهَا زُملائى ، والتى تثيرُ مواطنَ الإشفاقِ فى قلبِ كلِّ مواطِن . ولكنّ هذِه اليومياتِ الجافّة ، وأجسَامنا الهامِدَة ستقصّ عليكم قصّتنا بأكملهَا .

سنثبتُ فـي المعتركِ إلى نِهَايتـه ، ولكنّا نزيـدُ ضعفًا – بـالطبع – مَـعَ الأيّام . ولن تكونَ النهايةُ منّا على مَدًى بَعِيد . .

واحَسْرتاه ! لا أظننِي قادرًا على الكتابةِ أكثرَ مِنْ ذلِكَ» .

ر . سكُوت

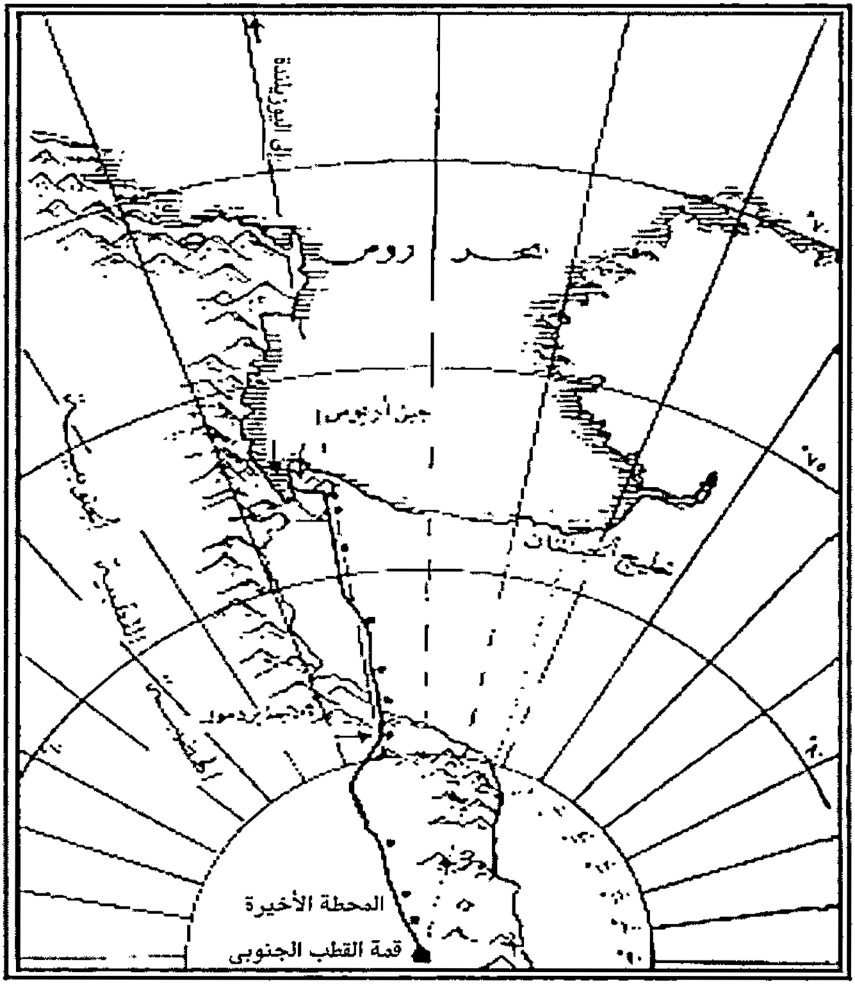
***



ولكنَ «الكابتن سكُوت» كانَ قادِرًا عَلى أن يكتـبَ كلمـةً أضافهَا إلى ذَيْلِ هذه المذكراتِ . .

لقد كتبَ إلى بِلاَده – حكـومةً وشعبًا – يُوصيهم برعايـةِ أهلِهِ وأسرتهِ فى الوطنِ العزيزِ .

وأغلبُ الظَّنِّ أن بلادَه نَفّذَت الوصيّة ، لأنَ الأوطانَ لا تنسَى أبناءَهَا المخلصِينَ . . .


إلى النيوزيلندة
بحر روس
جبل أرديوس
المحطة الأخيرة
قمة القطب الجنوبى
٧٠°
٧٥°
٨٠°

رقم الإيداع	٢٠٠٣/٢٠٨٤٦
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6551-9

٧/٢٠٠٣/٣٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مجموعة قصص الرحالة والمكتشفين

هذه المجموعة كانت تنتظرها المكتبة العربية من زمن بعيد . . . إنها تصور لنا رجالا من جميع العصور ومن الشرق والغرب ، خاضوا غمرات البحار ، وضربوا فى مجاهل الأرض ، لا يقف فى سبيلهم محيطات متلاطمة الموج ، ولا صحارى قاحلة ، ولا جبال شاهقة ، ولا مساحات الجليد المنبسطة فوق المناطق القطبية المتجمدة . . . ليكشفوا للعالم عوالم جديدة وأرضاً جديدة وشعوباً جديدة بعاداتها وتقاليدها وغرائبها .

إن هذه المجموعة الطريفة الشائقة المحلاة بالرسوم والمزودة بالخرائط ، والمكتوبة بأسلوب قصصى جذاب ، تحكى لنا قصص هؤلاء الرحالين والمكتشفين ، فيستمتع بها الناشئة والكبار على السواء .

● ظهر منها

١ – خوف حر	للدكتور عبد العزيز عبد المجيد
٢ – فاسكو دى جاما	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٣ – عبد اللطيف البغدادى	للأستاذ عبد السلام العشرى
٤ – ولتر رالى	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٥ – عمر التونسى	للدكتور عبد العزيز عبد المجيد
٦ – الكابتن كوك	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٧ – المسعودى	للأستاذ عبد السلام العشرى
٨ – الكابتن سكوت	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٩ – ماركو پولو	للأستاذ إبراهيم أسعد
١٠ – بيرى	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١١ – منجوبارك	للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
١٢ – المقدسى البشارى	للدكتور عبد الفتاح شلبى
١٣ – ماجلان	للأستاذ مترى أمين

١٣ قرشاً ج . ع . م .	١٣٠ فلساً فى العراق والأردن	١٨٢ فرنكاً فى المغرب
١٠٤ ق . ل	١٣٠ فلساً فى الكويت	١,١٣ ريالا سعودياً
١٣٠ ق . س	١٥٦ مليماً فى تونس	٢,٧ شلناً } فى البلاد
١٣٠ مليماً فى ليبيا والسودان	١٨٢ فرنكاً فى الجزائر	٠,٣٧ دولاراً } الأخرى